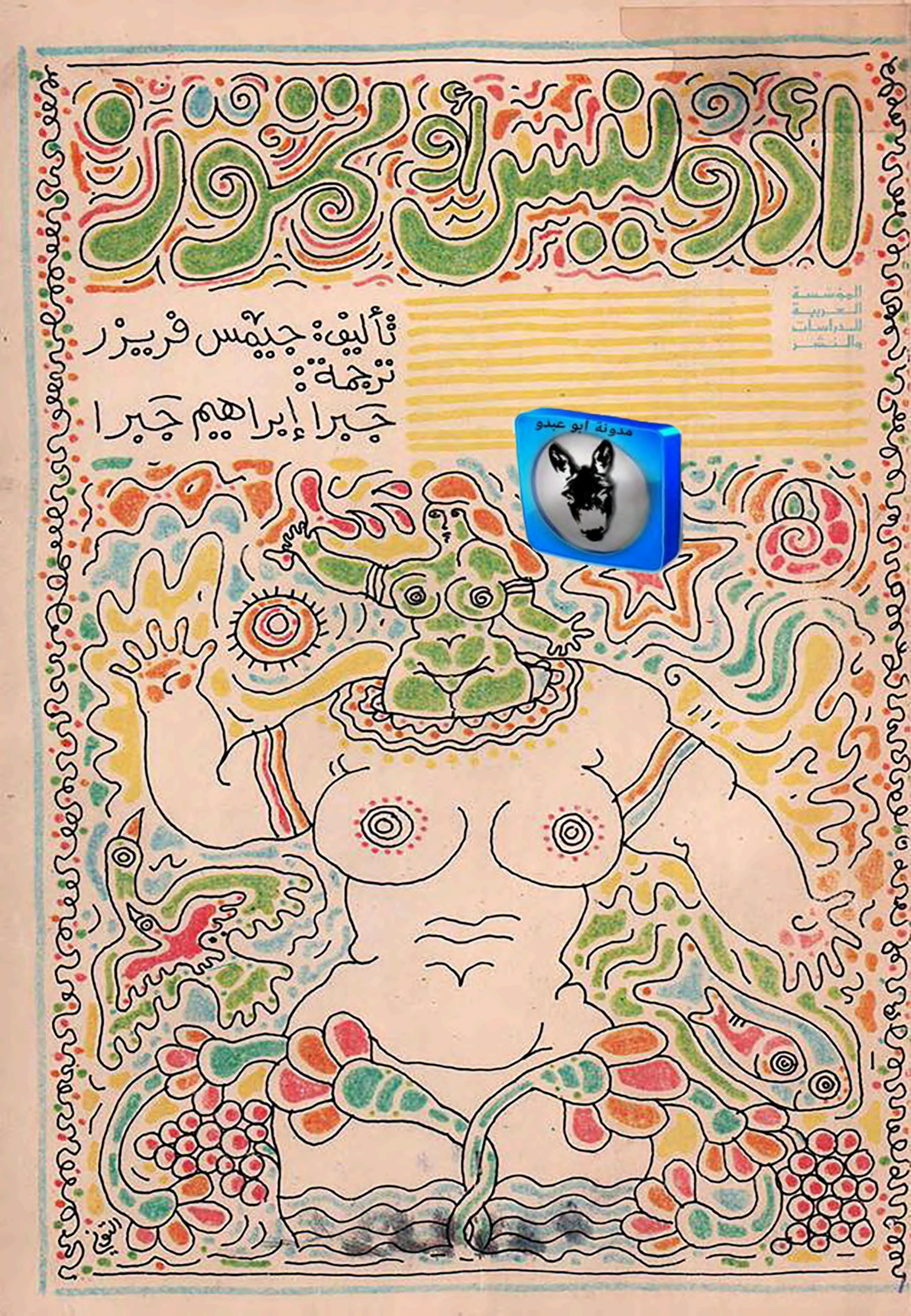

أدونيس أو تموز
تأليف: جيمس فريزر
ترجمة:
جبرا إبراهيم جبرا
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
مدونة أبو عبدو

جيمس فريزر

أدونيس
أو
تموز

دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة

ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ . بيروت

الطبعة الأولى ١٩٥٧
الطبعة الثانية ١٩٧٩

إهداء المترجم

إلى أخي يوسف

كلمة المترجم

نُشر كتاب « الغصن الذهبي » The Golden Bough في عدة مجلدات لأول مرة سنة ١٩٠٠ ، ويدعى المجلد الرابع منه « ادونيس ، آتيس ، اوزيرس » ، وكتابنا هذا هو الجزء الاول منه . وهو كتاب له لدينا اهمية خاصة . فهو يعالج فكرة انتجتها تربة بلادنا ، ويعود بالكثير من أساطير الاغريق التي تكوّن جزءاً من الفكر الغربي ، والحضارة الاوروبية ، الى معتقدات وأديان انبثقت عن هذه الأرض .

والكتاب بعرضه الممتع للمعتقدات والعادات التي كان الناس قديماً يمارسونها في مراسيم الخصب وطقوس العبادة ، يُفسر الكثير من المعتقدات والعادات الشائعة بين الناس حتى اليوم . وقد كان لهذا الجزء ، فضلاً عن خطورته الانثروبولوجية الظاهرة ، أثر عميق في الابداع الادبي في اوروبا في السنين الخمسين الأخيرة ، بما هيأه للشعراء والكتاب من ثروة رمزية واسطورية ، نرجو أن يقبل عليها ادباؤنا ايضاً ، لاغناء ادبنا الحديث .

في الأصل حواشٍ كثيرة استحسنت حذفها إلا في بضعة

مواضع . غير أنني اضفت بعض الحواشي التي قد يجدهـا القا رى العربي ضرورية لفهم النص ، كما أنني حذفت بعض الفقرات هنـا وهناك ، بما فيه تكرار او اطناب في وصف بعض الاكتشافات الأثرية التي لن تهم إلا الباحث المتخصص . وقد اعتمدت عـلى طبعة ١٩١٤ .

جبرا ابراهيم جبرا

مقدمة الطبعة الثانية

قمتُ بترجمة هذا الكتاب في أواسط الأربعينات ، وعندما قدمت إلى بغداد للتدريس في كلياتها في خريف عام ١٩٤٨ ، كانت مسوّدة الترجمة بين أوراق كتاباتي ودراساتي التي حملتها معي من القدس ، مع بعض الرسوم واللوحات الزيتية الصغيرة .

وقد تحدّثتُ يومئذ لأصدقائي عن الكتاب وأهميته ، وعبّرتُ عن رغبتي في أن أجد من يبيّض مسوّدة الترجمة ، تهيئة لنشرها ، فأنبرى المرحوم الشاعر حسين مردان ، وقال انه مستعد للقيام بذلك بنفسه . ففرحت ، وسألته كم يريد لقاء تبييض كل صفحة ، فقال ، دون تردد : « عشرة فلوس . » قلت : « مستحيل ! يجب أن أدفع أكثر من ذلك ! » قال : « لماذا ؟ هل تتوقع أن تكسب فلساً واحداً من نشرها ؟ ألا يكفي أنك قمت بجهد الترجمة ؟ » وبعد الاصدار ، وافق ، رحمه الله ، على خمسة عشر فلساً لقاء كل صفحة ! وأخذ المسودة معه إلى فندق كان يسكن فيه .

التقينا بعد يومين أو ثلاثة ، وسألته : « كيف يجري نسخ الكتاب » ؟ فقال : « بيّضتُ صفحات كثيرة منه . أستلقي على بطني على الأرض وأنسخ صفحة تلو صفحة ، وأنا مستمتع به جداً » . وعبّرتُ من جديد عن أسفي على ضآلة المبلغ الذي سيتحقق له في النهاية . فقال مازحاً على طريقته الفذّة : «أتثقف ، وآخذ فلوساً . ماذا أُريد بعد ؟».. وانتهى من التبييض في أُسبوعين أوثلاثة .

كان ذلك في أوائل عام ١٩٤٩ ، وأنا إذْ أذكر ذلك الآن ، فإني أكاد أجزم أنه لولا همّة حسين مردان لبقي الكتاب مجموعة مسوّدات من كل لون وحجم مطوية بين أوراقي .

عندما وجدتُ النسخة بين يديّ كاملة ، أنيقة ، وبخط جميل ، تصوّرتُ أن نشرها سيكون أمراً سهلاً . فعرضتها ، أول الأمر ، على المجمع العلمي ببغداد ، ولستُ أدري مَنْ ؛ بالضبط قرأها ، أو ألقى نظرة على صفحاتها الأولى ، غير أن المهمّ هو أنها أُعيدت إليّ مع الاعتذار ، لأن لا صلة للكتاب بالدراسات العربية أو الإسلامية . واقترح أحد الأصدقاء إرسالها إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . وبالفعل حملها معه في صيف ذلك العام صديق كان مسافراً إلى القاهرة ، وقضى فيها شهرين ، ولكنه عاد يحمل المخطوطة ، مرفقة بكلمة من سكرتير

اللجنة يقول فيها ما معناه : إن الكتاب يبدو قيّماً ، ولكن فيه « جرأة » في الموضوع تجد اللجنة معها أنها لا تستطيع نشر الكتاب .

دهشتُ أن كتاباً « كالغصن الذهبي » ، هو من أمهات كتب العالم في العصر الحديث ، ومن أبعدها أثراً في الرواية والشعر المعاصرين ، يحتاج إلى مَنْ يقنع المسؤولين عن نشر كتب العلم والثقافة، أن أحد أجزائه يستحق الوجود على رفوف المكتبة العربية .

وطويتُ المخطوطة ، مرة أخرى ، بين أوراقي عدة سنوات — ولو أنني أعرتها أكثر من مرّة لمن أراد أن يقرأها، وكان منهم بدر شاكر السياب. كما ان الشاعر بلند الحيدري، عندما أصدر العدد الأول (والوحيد) من مجلة « الفصول الأربعة » ، ربيع عام ١٩٥٤ ، نشر الفصلين الأول والثاني من الكتاب .

في صيف عام ١٩٥٦ التقيتُ القاص الصديق الياس مقدسي الياس ببيروت، وبمجرّد الصدفة ذكرتُ المخطوطة، فتحمّس لها، وأصرّ على نشرها—على نفقته ، وأنا أعلم أن ظروفه المادية أيامئذٍ لا يحسد عليها . غير انه كان مطمئناً إلى أن الكتاب سيعود عليه بشيء من الربح ، مهما ضؤل ، بل توهمتُ أنني سيكون لي ، أنا أيضاً ، نصيب من ذلك الربح المزعوم .

وطلبتُ من الفنان المرحوم جواد سليم (الذي كان قد صمّم لي غلاف « عرق وقصص أخرى ») أن يصمّم غلاف الكتاب الجديد ، وأعطيته المخطوطة ليقرأها ، وبعد بضعة أيام صمم غلافاً جميلاً استوحاه من زخارف متميزة تُجعل على الجرار في مدينة جبيل بلبنان ، بسبب صلة قصة « أدونيس » بجبيل – أو بيبلوس القديمة .

وأرسلت الأوراق والغلاف إلى بيروت ، إلى الأستاذ الياس المقدسي الياس ، الذي جازف وطبع الكتاب ... وبعد مدة قصيرة ، تمّ طبعه وأرسل إليّ عدداً طيباً من النسخ ، فشكرته مجدّداً . وبعد قرابة السنة ، كتبتُ إليه أسأله هل حقق الكتاب ربحاً يذكر ؟ فأرسل إليّ يقول إن معظم النسخ بقيت مكدسة لديه ، أو في المطبعة ... وسألني : هل أريد المزيد من النسخ ، وبدون مقابل ؟ وتبيّن أنه لم يحصل حتى على ما يكفي لسدّ نفقات الطباعة .

غير أن الكتاب ، فيما يبدو ، بعد سنتين أو ثلاث قذف به إلى السوق مرّة أخرى ، وكان استخدام أسطورة تموز في الشعر الجديد قد لفت أنظار القراء على نطاق واسع في الوطن العربي ، وإذا الكتاب ينفد حقاً ، وأخذ الكثيرون يكتبون إليّ يطلبون نسخة منه ، لأنهم لا يجدونه في الأسواق.

ومرّت السنون وأنا أسمع مَنْ يقول بضرورة إعادة

طبعه ، وأنا لا أتحرك . غير أن إلحاح الصديق الاستاذ ماجد السامرائي على إعادة طبعه ، مع عدد من كتبي الأخرى ، كان وحده ذا جدوى ، وها هو الكتاب يصدر ، مرة أخرى ، في حلّة جديدة ، ولعلّ أهميته زادت اليوم عما كانت عليه من قبل . فكتاب « الغصن الذهبي » ، ولا سيما هذا الجزء منه ، غدا مرجعاً لا بدّ منه في الدراسات الأدبية الحديثة ، إضافة إلى الدراسات الانثروبولوجية . ولئن يكن علم الأنثروبولوجيا الآن قد انتهج أساليب تسير في اتجاهات غير تلك التي سار فيها السير جيمز فريزر في أبحاثه ، فإن « الغصن الذهبي » يبقى كتاباً دائم الحيوية ، شديد الايحاء ، وواحداً من الكتب الأساسية التي ما زالت تغذّي حضارة هذا العصر .

جبرا ابراهيم جبرا

بغداد

كانون الثاني ١٩٧٩

الفصل الأول

اسطورة ادونيس

لقد ترك منظر التغيرات الكبرى التي تطرأ كل سنة على وجه الارض اثراً قوياً في اذهان الناس في كل عصر، وبعثهم الى التأمل في اسباب هـــذه التحولات الواسعة العجيبة . ولم يبعثهم الى ذلك الاستطلاع المجرد ، فان المتوحش نفسه ليرى العــلاقة الوثيقة بين حياته وحياة الطبيعة، ويدرك ان القوى التي تجمد الأنهار ، وتجرد الأرض من نبتها، تهدده هو أيضاً بالهلاك .وقد ظن النـــاس في احدى فترات التطور ان الوسائل لتجنب المصائب هي في ايديهم ، وانهم يستطيعون ان يعجلوا في سير الفصول او يبطئوا منه بفن السحر . ولذا قاموا ببعض المراسيم وقرأوا الرقي والتعاويذ ليحثوا المطر على السقوط ، والشمس على الاشراق ، والحيوانات عــلى التكاثر ، وفواكه الارض على النمو . وعلى مر الزمان تقدمت المعرفـــة ببطء شديد وبددت كثيراً من الاحلام اللذيذة منذ ذلك اليوم فأقنعت من البشر ، على الاقل ، بعض من كانوا اميل الى التفكير بان تعاقب الصيف والشتاء والربيع والخريف ، لم يكن نتيجـــه مراسيمهم السحرية، بل ان سبباً اعمق منها وقوة اشد بطشاً كانت دائبة على العمل وراء مشاهد الطبيعة المتغيرة . فاخذوا يتصورون ان نمو الزرع وموته ، وولادة المخلوقات الحية وموتهـــا ، إنما

هي نتيجة لازدياد قوة كائنات الهيه او نقصانها ، وان هـــذه الكائنات – آلهة وإلهات – تولد وتموت ، تتزوج وتلد الاولاد ، طبق حياة الانسان .

وهكذا فان النظرية السحرية القديمة التي تعلل الفصول احتلت مكانها ،او بالاحرى اضيفت اليها، نظرية دينية . فلئن اصبح الناس يعزون دورة التغير السنوية الى تغيرات مماثلة في الآلهة ، فانهم ظلوا يعتقدون انهم بقيامهم ببعض المراسيم السحرية يستطيعون ان يساعدوا الاله ، وهو مبدأ الحياة ، في كفاحه مع مناوئه ، مبدأ الموت . وظنوا انهم يستطيعون ان ينعشوا قواه الخائرة بل وان ينهضوه من بين الاموات . وكانت المراسيم التي يحتفلون بها لهذا الغرض تمثيلاً مسرحياً للمظاهر الطبيعية التي يودون اسعافهـا : فمن معتقدات السحر المعروفة انك تستطيع ان تاتي بنتيجة تبتغيهـــا ، بمجرد تقليدها . ولما جعلوا يعللون تقلبات النمو والانحلال والكثرة والاضمحلال ، بزواج الآلهة وموتها وولادتها من جديد او بعثها ، اخذت مسرحياتهم الدينية ، او قل السحرية ، تدور اكثرها حول هذه المواضيع . فابتدعوا فكرة التزاوج المثمر بين قوى الخصب ، ثم موت احد الطرفين على الاقل موتاً مفجعـــاً ثم بعثه المفرح . وهكذا امتزجت النظرية الدينية بالسحر ، والجمع بينهما معروف في التاريخ ، بل ان الاديان التي استطاعت ان تحرر نفسها تماماً من قيود السحر القديمة اقلية ضئيلة . بيد ان التناقض في العمل بموجب مبـــدأين متناقضين ، وهو امر يزعج الفيلسوف ، قلمـا يزعج الرجل العادي . بل انه قلما يشعر بوجود هـــذا التناقض . فهمه

الاول هو ان يعمل ، لا ان يحلل دوافع عمله . ولو كان البشر دائماً ذوي منطق وحكمة لما كان التاريخ سجلاً طويـــلاً للحماقات والجرائم (١) .

ومن اشد التغيرات ظهوراً مما تأتي به الفصول في المنطقة المعتدلة هي تلك التي تطرأ على النبات . فان تأثير الفصول على الحيوانات وان يكن عظيماً ليس ظاهراً ظهوره على النبات . ولذلك كان من الطبيعي ان يكون النبات موضع الهم الاول في التمثيليـــات التي كان الغرض منها دفع الشتاء واسترجاع الربيع على ان جـــانبي الحياة، النباتي والحيواني ، كانا غير منفصلين في اذهان اصحاب تلك المراسيم . بل انهم اعتقدوا اجمالاً ان الرابطة بين عالم النبات وعالم الحيوان اوثق بكثير مما هي فعلاً .ولهذا كثيراً ما أضافوا الى التمثيل المسرحي الذي يمثل النباتات المبعوثة من جديد ، تضاجع الجنسين ، إما فعلاً او تمثيلياً ، بقصد اكثـار الفواكه والحيوانات والنـاس بالفعل عينه وفي الوقت نفسه . فقد كان في معتقدهم ان مبدأ الحياة والخصب ، سواء اكان حيواناً ام نباتاً ، مبدأ واحد لا يتجزأ . وكانت حاجات الانسان الاولية في الماضي هي الحياة، وجلب الحياة ، واكل الطعام وولادة الاولاد ، وستبقى هـــذه حاجات الانسان الاولية ما دامت الدنيا . وقد تضـــاف اشياء اخرى لتزيين الحياة الانسانية وتجميلها ، ولكن اذا لم

---

(١) من العبثان نحاول فهم تاريخ الفكر عامة ، وتاريخ الدين خاصة، الا اذا ادركنا ما فطر عليه العقل الانساني من المقدرة على الاعتقاد باشياء متناقضة في آن واحد .

تُكفَ هذه الحاجات أولاً فلا بد للبشر من الانقراض .
ولذلك فان الحصول على هذين الأمرين ، الطعام والأولاد .
هو هدف الناس من القيام بالمراسيم السحرية لتنظيم الفصول .

ويلوح لنا ان هذه المراسيم لم تنتشر في صقع ما كما انتشرت في البلاد المحيطة بشرقي البحر الابيض المتوسط . فقد كانت شعوب مصر وغربي آسيا تمثل موت الحياة وبعثها السنويين ، لا سيما حياة النبات تحت أسماء أوزيريس وتموز وأدونيس واتيس ، فشبهوا النبات بإله يموت كل سنة ثم يقوم من بين الاموات .

واذا كانت المراسيم تختلف في كل قطر في الاسماء والتفاصيل فقد كانت متماثلة في جوهرها . وموضوع هذا البحث هو موت هذا الاله وبعثه كما افترضه الشرقيون — وهو اله ذو اسماء كثيرة ولكنه جوهرياً واحد . وسنبدأ الآن بالاله تموز او ادونيس .

كان يعبد ادونيس الأقوام السامية في وادي الرافدين وسوريا ثم أخذ الاغريق عنهم عبادته حوالى القرن السابع قبل الميلاد ، وكان اسم الالة الحقيقي «تموز» وما التسمية «أدونيس» إلا الكلمة السامية ومعناها «السيد» وهو لقب احترام كان يطلقه عليه عبّاده . وفي النص العبري لكتاب العهد القديم كثيراً ما يطلق هذا الاسم على يهوه بشكل « أدوناي » ولعلها أصلاً أدوني أي «سيدي». غير أن الاغريق أساؤا الفهم فحولوا لقب الاحترام هذا الى اسم علم .

واذا كان تموز أو مرادفه ادونيس يعبد عبادة منتشرة بين الاقوام السامية الاصل ، فان هناك اسباباً تحدو الى الظن بان

عبـــادته بدأت اصلًا بين جنس يختلف عنهم دماً ولغـــة ، وهم السومريون ، الذين قطنوا في فجر التاريخ البطاح المترامية في رأس الخليج العربي وأوجدوا هناك حضارة دعيت فيما بعد الحضارة البابلية . ولا يعرف اصل هذا الشعب او قرابتـــه بغيره . وهو يختلف في شكل الجسم واللغة عن جيرانه كلهم ، ووجوده وحيداً بين اقوام غريبة عنه مشكلة للباحث في تاريخ البشرية ، اشبه بمشكلة وجود شعب « الباسك » و « الاتروسكيين » في وسط الاقـــوام الآرية في اوربا . وقد نأتي بنظرية بارعة ، ولكنها غير ثابتة ، اذا قلنا انهم مهاجرون دفعهم من اواسط آسيا ذلك القحط التدريجي الذي يبدو انه كان طوال عصور متلاحقـة يحول الاراضي الخصبة الى صحراء قاحلة ، ويطمر مراكز الحضارة القديمـــة تحت امواج الرمال المتنقلة . ومهما يكن موطن السومريين الأصلي فإنه من المؤكد انهم بلغوا أوجاً عالياً من الحضارة في زمن مبـكر جداً في بابل الجنوبيـــة ، فقد حرثوا الارض وربوا المواشي ، وبنوا المدن وحفروا القنوات ، بل وابتدعوا ضرباً من الكتابة اخـــذه عنهم فيما بعد جيرانهم الساميون . ويظهر ان تموز كان من اقـدم آلهتهم وإن لم يكن من أشدهم خطورة . ويتألف اسمه من عبارة سومرية معناها « الابن الحق » . أو بشكل أكمل : « الابن الحق للمياه العميقة » . وبين النقوش السومرية التي لم تقض عليها عوادي الزمان وزوال الدول عـدد من القصائد في مدحه ، دونت قبل المسيح على الاقل بالفي سنة ، ولكن ما من شك في انها كانت قد نظمت قبل ذلك بكثير .

فخارت قواها .
تنوح على نهر عظيم حيث الصفصاف لا ينمو ،
تنوح على حقل حيث القمح والاعشاب لا تنمو ،
تنوح على بركة حيث لا سمك ينمو ،
تنوح على حرش اقصاب حيث لا قصب ينمو ،
تنوح على غابات حيث لا طرفاء تنمو ،
تنوح على برار لا اشجار مرو (?) فيها تنمو ،
تنوح على أعماق حديقة كلها شجر حيث لا عسل
ولا خمر ، ينمو ،
تنوح على مروج حيث لا نبات ينمو ،
تنوح على قصر حيث طول الحياة لا ينمو ».

وتخبرنا اوصاف الكتّاب الاغريق عن قصة ادونيس المحزنة ومراسيمه التي يجللها الحداد اكثر مما تخبرنا به القطع المتناثرة التي لدينا من الادب البابلي ، او الاشارة الموجزة التي فاه بها النبي حزقيال عندما رأى نساء اورشليم تبكي على تموز في الباب الشمالي من الهيكل . ففي مرآة الاساطير الاغريقية يظهر هذا الاله الشرقي في شكل شاب جميل اولعت «افروديتي» به حباً . ولما كان طفلاً خبأته الالهة في صندوق وضعته في عهدة « برسيفوني » إلهة العالم السفلي . بيد أن برسيفوني عندما فتحت الصندوق ورأت جمال الطفل ، رفضت أن تعيده إلى افروديتي ، مع ان إلهة الحب نزلت بنفسها الى الجحيم لتفدي حبيبها من سلطان القبر . ولم يحسم النزاع بين إلهة الحب وإلهة الموت إلا «زفس» ، اذ حكم بان يبقى ادونيس

مع برسيفوني تحت الارض شطراً من السنة ، ومع افروديتي في العالم العلوي شطراً آخر . واخيراً قتل خنزير بري الشاب الجميل وهو في الصيد ، او صرعه «آريس» (١) لغيرته اذ تنكر في شكل خنزير لكي يستطيع ان يودي بغريمه . وما اشد ما بكت افروديتي حبيبها المقتول .

وقد عثر على مرآة «اترسكية» عليها صورة يظهر انها تصور النزاع بين المتنافستين الإلهيتين على ادونيس. فهناك امرأتان، ثبت من النقوش انهما الإلهتان، تقف كل منهما على جانب من زفس، وقد جلس على كرسي الحكم ورفع اصبعه موبخاً ، وهو ينظر الى برسيفوني نظرة العنف. أما إلهة الحب فقد تغلب عليها الحزن فغطت وجهها بوشاحها ، بينما وقفت منافستها العنيدة تحمل غصناً بيد وتشير بالاخرى الى صندوق مغلق لعله يحتوي على ادونيس الصغير . في هذا الشكل من الاسطورة لا ريب ان النزاع بين افروديتي وبرسيفوني من اجل ادونيس إن هو الا الكفاح بين عشتاروت والاتو في ارض الموتى، في حين ان قرار زفس الحاكم على ادونيس بالقضاء شطراً من السنة تحت الارض وشطراً فوقها، ما هو الا شكل آخر عبر الاغريق به عن احتجاب ادونيس، وعودته الى الظهور مرة ثانية .

---

(١) اله الحرب ومن عشاق افروديتي «المترجم»

الفصل الثاني

ادونيس في سوريا

استوطنت اسطورة ادونيس بلدتين في غربي آسيا ، كانتا تحتفلان براسيمه بوقار كثير ، وهما « بيبلوس » على ساحل سوريا و«بافوس» في قبرص . وكانت كلتاهما مقراً عظيماً لعبادة افروديتي ، او بالاحرى مرادفتها السامية عشتاروت . واذا صدقنا الروايات القديمة فان « كينيراس» ابا ادونيس ، كان ملكاً على كلتيهما . وكانت بيبلوس اقدم المدينتين ، بل انها ادعت انها اقدم مدينة في فينيقية،وانها تأسست في اوائل عصور الدنيا على يدي الاله الاكبر «ال»، الذي اطلق الاغريق على مرادفه اسم « كرونوس»والرومان «ساتورن» . ومهما يكن من امر فان بيبلوس اعتبرت في الاعصر القديمة مكاناً مقدساً ومكة الفينيقيين . فقد كانت مبنية على مرتفع قرب البحر ، وفيها هيكل كبير لعشتاروت ، وفي وسط فنائه الواسع المحاط بالاروقة ، والذي يوصل اليه بدرج كثير ، كان مخروط طويل او مسلة ، هو رمز الاله المقدس . وفي هذا الهيكل كان الناس يحتفلون براسيم ادونيس ، بل ان المدينة باجمعها كانت مكرسة له ، وكان نهر ابراهيم الذي يصب في البحر على بعد قليل جنوبي بيبلوس – (جبيل) - يدعى في القديم نهر ادونيس .

هذه كانت مملكة كينيراس . ويظهر ان ملوكاً قدحكموا المدينة

منذ اقدم العصور الى متأخرها يساعدهم مجلس للشيوخ . واول الملوك ممن لدينا عنهم شواهد تاريخية ملك اسمه «زيكار بعل» ، عاش قبل الملك سليمان بحوالي قرن ، غير اننا ، رغم بعده في الماضي ، نكاد نراه رؤية العين حين نقرأ تاجر او موظف مصري يدعى « ونعمون »، احتفظت لحسن الحظ على ورق البردى. فقد قضى هذا الرجل مدة من الزمن مع ملك بيبلوس، فمنحه هذا مقابل عطايا ثمينة كمية من الخشب اقتطعها من غابات لبنان . ثم هنــاك ملك آخر « سيبتي بعل » دفع الجزية لملك اشور « طغلات فلاصر الثالث » حوالي سنة ٧٣٩ ق .م . ونعلم ايضاً ان احد ملوك جبيل (حسب نقوش ترجع الى ما قبل الميـلاد باربعة او خمسة قرون) ، واسمــه « يهوملك » بن « يهاربعل » بن « ادوم ملك » او « يورى ملك » قدم للالهة مدخلًا ذا اعمدة محفورة وموشاة بالذهب وهيكلًا من البرونز، وكان يعبد الالهة باسم «بعلة جبيل» اي « سيدة جبيل » .

وتدل اسماء هؤلاء الملوك على انهم ادعوا النسب الى الههم بعل او « مولوخ » ، وما مولوخ الا تحريف كلمة « ملك » . وعلى كل فان كثيراً من الملوك الساميين افصحوا عن هذا الادعــاء ، فكان ملوك بابل الاوائل يُعبدون بصفتهم آلهة ما داموا احيـاء . وربما لقب « ميشع » ملك موآب نفسه بابن الآلهة « كيموش » . وفي التوراة نجد أكثر من ملك واحد من ملوك الآراميين أسياد دمشق يدعى « ابن حدد » اي « ابن الاله الخـالد » ، الذي كان اعظم الآلهة الذكور في سوريا . ويقول يوسيفوس ان اهل دمشق

حتى في ايامه ، في القرن الاول للميلاد، يعبدون «ابن حدد الاول» ويسميه آدد– وخليفته «حزائيل» ويقومون بالمواكب والدورات يومياً احتراماً لهما . ثم ذهب بعض ملوك «ايدوم» خطوة ابعد ولقبوا انفسهم بالاله في اثناء حياتهم ، او على الاقل اتخذوا اسم الاله «حدد» دون ان كلمة اخرى معها مثل «ابن» . ويظهر من اسم الملك «باريكوب» الذي حكم «صامال» في شمال غربي سوريا في ايام طغلاث فلاصر (٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م) ، انه عد نفسه ابن «ريكوب ال» الاله الذي قال الملك انه مدين له بمملكته . وكان ملوك صور يرجعون بنسبهم الى «بعل» ، ويظهر انهم قالوا عن انفسهم انهم آلهة . واتخذ بضعة منهم اسماء تتالف بعض اجزائها من اسمي بعل وعشتاروت ، وكان اسم احدهم بعل لا اكثر ولا اقل . وبعل هذا الذي كانوا يمثلونه باشخاصهم هو لا شك «ملكارث» اي «ملك المدينة» كما يدل على ذلك اسمه ، وهو الاله العظيم الذي سماه الاغريق «هرقل» ، وقد وجد الدليل القاطع ، على ان بعل مدينة صور هو ملكارث او هرقل ، في نقوش كتبت باللغتين الفينقية والاغريقية في جزيرة مالطا .

ولعل ملوك جبيل اتخذوا على نفس النمط لقب ادونيس ، فما ادونيس الا الادون او السيد الالهي للمدينة ، وهو لقب يكاد لا يختلف في شيء من المعنى عن بعل «سيد او رب» او ملك . ويصدق هذا التخمين اذا ثبت ما قاله رينان من ان احد ملوك بيبلوس كان يدعى «ادوم ملك» اي ادونيس ملك – السيد الملك،

ولكن لسوء الحظ ما زالت قراءة النقوش التي يرد فيها اسم هذا الملك مشكوكاً في صحتها . ويظهر ان بعض ملوك اورشليم الكنعانيين القدماء لعبوا دور ادونيس في اثناء حياتهم اذ صح الاستنتاج من اسمائهم، مثل « ادوني باصاق » و « ادوني صاداق» وهما لقبان الهيان لا بشريان . فادوني صادق معناها « سيد البر » ولذا فهي مرادفة للقب ملك « سالم » الغريب الذكر و« كاهن الله الاعلى » (كما تسميه التوراة) ملكيصاداق (سيد البر) ، الذي يلوح انه لم يكن الا احد هؤلاء الملوك الكنعانيين لاورشليم . ولذا إن كان ملوك اورشليم الكهان في القدم يلعبون دور ادونيس على استمرار فلا عجب اذا رأينا نساء اورشليم فيما بعد يبكين على تموز ، اي على ادونيس ، في باب الهيكل الشمالي . وكان يقطن ضمن اسوار اورشليم في الهيكل قوم يدعون « الرجال المقدسين » مكثوا فيها حتى اواخر ايام المملكة اليهودية ، ولعلهم كانوا يمثلون دور ادونيس الحي ازاء دور عشتاروت الحية التي تقوم به النساء. وعلى كل فاننا نعرف ان النساء في صوامع هؤلاء القساوسة كن ينسجن الاثواب « للاشريم » ، وهي العواميد الخشبية المقدسة قرب الهيكل التي يظهر ان البعض كان يعدها ممثلة لعشتاروت ، ولا ريب في ان هؤلاء « الرجال المقدسين » كانوا يقومون بعمل مـا يعده الناس مقدساً في هيكل اورشليم ، كما واننا لا نشك في ان الحظر على ادخال اجور البغاء في بيت الله الذي ظهر في نفس الوقت ، كان موجهاً ضد عادة متبعة . والمحتمل ان اجور البغايا المقدسات ، في فلسطين - كما في غيرها من البلدان السامية - كانت تقدم للاله كحق

من حقوقه ، اذ كان الاله يفرض الجزيةعلى الرجال والنساء فرضها على القطعان والمواشي ، على الحقول والكروم واحراش الزيتون .

ولكن اذا كانت اورشليم منذ القدم مقر سلالة من الزعماء الروحيين (اشبه باللاما الاكبر اليوم) يحملون في ايديهم مفاتيح السماء ، وينالون احترام الناس في اقاصي البلاد كملوك وآلهة معاً ، فاننا نستطيع ان ندرك بسهولة لماذا اختار داود العصامي هـــذه المدينة عاصمة لمملكته الجديدة التي كان قد حاز عليها بحد السيف . ولعل موقع هذه القلعة العذراء بمناعتها الطبيعية لم يكن الدافـــع الوحيد او المغري الرئيسي الذي حدا بالملك الداهية الى نقل عرشه من الخليـل الى اورشليم . فانه اذ نصب نفسه خليفة لملوك المدينة الاقدمين ، امل في ان يرث عنهم شهرتهم الروحية مـــع فدادين اراضيهم المترامية ، وان يلبس حلتهم الالهيـــة كما يلبس تاجهم . وهكذا فانه بعد ذلك عندما تغلب على « عمون » وفتـــح مدينة « رباح » التي كانت مقراً للملوك اخذ تاج الاله « ملكوم» العموني وكله من الذهب الابريز ، ووضعه على راسه متظاهراً بذلك بانه الاله نفسه . فمن المعقول اذن اذا قلنا انه باستيلائه على اورشليم إنما اتبع الخطة نفسها تماماً . ومن ناحية اخرى يمكن ان يقـــال ان اليبوسيين القاطنين في المدينة باعتدادهم بانفسهم وهم ينتظرون هجومه عليهم ويهزئهم من محاصريهم من اعالي الاسوار إنما كانوا واثقين كل الثقة باله مدينتهم ، اكثر مما كانوا واثقين بعلو اسوارهم القديمـــة وضخامتها . ولا شك ان قوة الشكيمة التي اظهرها اليهود في العصور التالية عندمـــا كانوا يدافعون عن المكان نفسه ضد جيوش اشور

وروما كانت الى حد بعيد وليدة هذا الايمان باله صهيون .

مهما يكن من امر فان في تاريخ الملوك العبرانيين نواحي يمكن تأويلها – دون ارهاقها – بانها بقايا عصر كانوا هم او اسلافهم فيه يلعبون دور إله ما ، وعلى الاخص دور ادونيس ، رب البلاد . فكان الملك العبراني يدعى في اثناء حياته « آدوني هاميليخ » اي : « سيدي او ربي الملك » ، وينوحون عليه بعد موته صارخين « هوي آحي ! هوي آدون ! » اي : « واأخواه ! وارباه !.. » ولا نشك في ان عبارات الاسى هذه على موت ملك من ملوك يهودية هي نفس العبارات التي كانت ترددها نساء اورشليم النائحات في مدخل الهيكل الشمالي على موت « تموز » . غير اننا لا نستطيع هنا ان نتأكد من تأويل عبارات كهذه لان كلمه « ادون » العبرية ككلمة « سيد او رب » العربية لقب علماني وديني معاً . ولكن سواء ادعى الملوك العبرانيون بانهم ادونيس ام لا فانهم ولا ريب انزلوا من الناس منزلة لها صبغة إلهية ، كممثلين « ليهوه » على الارض وكصورة له نوعاً ما . وذلك ان عرش الملك كان يسمى بعرش يهوه ، ومسحه بالزيت المقدس ، كان يفسر بمنحه مباشرة جزءاً من الروح الالهية ، ولهذا كان الملك يلقب بالمسيح ، وهي كلمة معناها « الممسوح بالزيت المقدس » . ولذلك فان داود عندما شق حاشية ثوب الملك شاؤول في مغارة مظلمة حيث كان مختبئاً ، اضطرب قلبه ووبخته نفسه لانه دنس بيديه « آدوني يهوه » ، اي « سيدي المسوح من يهوه » .

ويظهر ان الملوك العبرانيين ، كغيرهم من الحكام الالهيين او

الشبه الالهيين ، كانوا يعدون مسؤولين عن المجاعات والطـاعون . فلما حل بالبلاد قحط دام ثلاث سنوات بسبب قلة امطار الشتاء ، استفسر الملك داود الوحي عن السبب ، فجاء الجواب لبقاً واضعاً اللوم على سلفه شاؤول . واذا كان شاؤول الميت لا تصل اليه يد القصاص فان ابناؤه لم يكونوا كذلك، ولذلك فتش داود عن سبعة منهم ، وشنقهم امام عيني الرب في اوائل موسم حصاد الشعير في الربيع . فجلست ام اثنين منهم طيلة الصيف تحت الشجرة التي علقوا عليها لتصد عنهم بنات آوى في الليل ، والعقبان في النهار ، حتى اذا ما قدم الخريف نزل المطر المبارك اخيراً ليبلل الاجسام المعلقـــة ويعيد الى الارض المجدبة خصبها . حينئـــذ انزلت عظامهم عن الشجر ودفنت في ضريح اجدادهم. ويدل الموسم الذي اعدم فيه هؤلاء الامراء في اوائل حصاد الشعير، وطول الفترة التي بقوا فيها معلقين على مشانقهم ، على ان اعدامهم لم يكن مجرد عقاب ، بل كان له طابع رقيـــة لاستنزال المطر . فمن المعتقدات الشائعة انه يمكن استنزال المطر بواسطة الطقوس السحرية التي تقام على عظام الموتى، ومن الطبيعي ان تنسب هذه المزية بوجه خاص الى عظام الامراء ، الذين كثيراً ما ينتظر منهم ان يستسقوا المطر وهم احياء . ولمـــا طلب الاسرائيليون من صموئيل ان يقيم عليهم ملكاً ، غضب النبي ولم يرض ان يعلو عليه شاؤول وهو من اصل وضيع، فدعا من الرب ان ينزل عليهم رعداً ومطراً ، فاستجاب اليه الرب في الحال، مع ان الفصل كان فصـــل الصيف والحصادون يعملون في حقول القمح — وليس من المألوف ان يـنزل المطر في الصيف من سماء سوريا التي

لا تشوبها حينئذ سحابة . ويظهر ان المؤرخ التقي الذي دون هذه المعجزة قد عدها اشارة الى غضب الاله الذي سمع صوته في قصف الرعد ، ولكن لنا ان نخمن ان صموئيل بضربه لنا هـذا المثل على سيطرته على الطقس ، إنما قصد ان يشير الى حماقة الشعب في طلبهم ملكاً يعنى بخصب الارض في حين ان نبياً يستطيع ان يقوم بالمهمة نفسها دون ان يرهقهم بنفقات الملك .

ويظهر ان الاسرائيليين كانوا يعدون قلة الامطار او غزارتها المسرفة علامة على غضب الاله . ولما عاد اليهود من السبي الى اورشليم واجتمعوا لاول مرة في فناء الهيكل المهدم ، اتفق ان ارخت السماء زمام المطر ، فقعدوا في الفناء الواسع ولا سقف يصد عنهـم مياه السماء الدافقة وهي تغرقهم ، فجعلوا يرتجفون خوفاً من خطـايـاهم ومن المطر . وقـد بقي الاسرائيليون يرون يد الله في تغييرات اوجه الطبيعة ، حتى اضحى ذلك من صفات قوتهم او ضعفهم . ولا عجب اذا رزح المسبيون تحت وقر من الشعور بجرمهم والشعور بغضب الله في لحظة كتلك ومكان مكرب كذاك ، والسماء من فوق تعبس في وجوههم ، وخرائب الهيكل المسودة امام اعينهم ، والغيث يهمي وتيراً فوق الجميع . ولعل ذكريات الشمس المشرقة والحقول المرعة، والانهر العريضة المحفوفة بالصفصاف ،التي عرفوها في بابل حيث اقاموا زمناً طويلاً ، أضافت – دون وعي منهم – ظلاً قاتماً من الحزن الى مشهد ارض فلسطين ، بتلالهـا الضامرة الغبراء ، وهي تمتد سلسلة اثر سلسلة الى احضان الافق ، او تهبط شرقاً الى خط ازرق بعيد يشير الى مياه البحر الميت المكفهرة .

ويبدو ان الناس في ايام المملكة العبرانية كانوا يعتقدون بان للملك قوة الامراض والشفاء . فقد ارسل ملك سوريا رجلاً ابرص الى ملك اسرائيل ليشفيه ، كما كان ذوو الاسقام في انكلترا وفرنسا يظنون ان الملك يستطيع ان يشفيهم بلمسة منه . بيد ان الملك العبراني اظهر حكمة اكثر من اخوانه في العصور الحديثة ، فأقر بعجزه عن القيام بآية كهذه وقال : « هل انا الله احيي وأميت ، حتى يرسل إلي هذا الرجل رجلاً لابرئه من برصه ؟!.». وفي مناسبة اخرى اهلك الطاعون آلاف الارواح في طول البلاد وعرضها فخيل للمبتلين المهتاجين انهم رأوا في السحب صورة الملاك المدمر وقد شهر سيفه على اورشيم ، فألحوا باللائمة على الملك داود الذي اساء الى الله السريع الغضب باحصائه الشعب . فانحنى الملك الفطن ازاء هذه العاصفة من الشعب واعترف بخطيئته ، وقدم الضحايا المحرقة ارضاء للاله الناقم في بيدر رجل يدعى عراونة ، وهو احد سكان اورشليم اليبوسيين القدماء ، وحينئذ اغمد الملاك سيفه الملتهب وانخفض صراخ المائتين وعويل المنتحبين ولم يعد يسمع صدى النواح في الطرقات .

وقد يقول معترض ان كتب التوراة التاريخية ليس فيها الا عبارات قليلة جداً تشير الى نظرية قدسية الملوك العبرانيين بله الوهيتهم. ولكن اعتراضاً كهذا يضعف كثيراً اذا تذكرنا الزمن والظروف التي استكملت فيها هذه الكتب شكلها . فان انبياء القرنين الثامن والسابع ق.م. قاموا بمثلهم الروحية العليا وحماسهم للفضيلة ، باصلاح ديني خلقي قد لا يوجد له شبيه في التاريخ . فقد تحولت

بفعلهم العبادة القديمة لقوى الطبيعة – بشكلها الذي يلذ للحواس – الى توحيد الله بشكل صارم . وبذا ظهرت روح شديدة التعنت تكره اللذة ولا تنثني في طلب الترفع الذهني والتقشف ، وحلت محل المزاج القديم السهل الانصياع ، بتقلبه وتأثره السريع كالشمع ، وميله الى لذات الجسد . وكان ان قوي في النفوس اثر الدروس التي القاها الانبياء في الفضيلة بفعل الحوادث السياسية عندئذ ، ولا سيما الضغط المتزايد الذي جعلت تفرضه الامبراطورية الاشورية على دويلات فلسطين . ولا ريب ان سكان اليهودية كانوا يتتبعون بلهفة وجزع اخبار حصار السامرة المخيف ، لان الخطر كان على ابوابهم . فما كان عليهم الا ان يرفعوا اعينهم وينظروا شمالاً ليروا تلال افرايم الزرقاء التي بنيت السامرة على سفوحها . ولما سقطت اخيراً ودمر الاشوريون المملكة الشمالية ، امتلأ كل ذهن مفكر في الدولة المجاورة بخواطر الخوف والاسى ، فكان كأن السماء قد تجهمت والرعد قد قصف مجمجماً فوق اورشليم . ومنذ تلك اللحظة حتى نهاية المملكة اليهودية بعد ذلك بقرن ونصف القرن ، لم تنقشع السحابة السوداء من سمائها – ولو انها بانت مرة كأنها تنقشع برهة قصيرة ، عندما رفع سنحاريب الحصار عن اورشليم ، ورأى الناس من الاسوار آخر صفوف الرماح والاعلام تتلاشى في الافق البعيد ، وآخر فيلق من فرسان آشور بمعاطفهم الزرقاء يبتعدون عن المدينة في غيمة من النقيع .

وقد كان في هذه الفترة التي عم فيها القنوط والاسى ان تمت دورتا الاصلاح الكبير في الدين الاسرائيلي ، اولاهما على يدي

الملك حزقيا ، والاخرى بعد ذلك بقرن على يدي الملك يوشيا .
فلا عجب اذن اذا رأينا المصلحين في ذلك العهد وما تلاه ، الذين ألفوا او نقحوا تواريخ امتهم ، ينظرون شزراً الى وثنية اسلافهم القديمة، كما نظر المتعصبون الشرسون في عهد« الكومونولث»(زمن كرمويل) الى ملاهي « انكلترا المرحة » التي كانت اكثر براءة بكثير من تلك الوثنية ، او اذا رايناهم كذلك ، بسبب تحرقهم الى تمجيد الله، يطمسون صفحات كثيرة من التاريخ لئلا يبقوا على ذكر عادات كانت في نظرهم مصدر الكوارث والنوائب التي حلت ببلادهم . وقد مرت الكتب التاريخية كلها عن مكتب هذا الرقيب المتطهر ، ولا ريب انها ما خرجت من بين يديه الا وقد تعرت من كثير من ريشها الزاهي اللعوب الذي كانت تفخر به قبل ان تصل الى يديه.ولربما كان من بين هذا الريش الساقط تلك العبارات التي اضفت على الكائنات الانسانية ، ملوكاً او عواماً ، صفات الالوهية . ولن تبدو صفحة ما اكثر كفراً للرقيب من صفحة كتلك، ولن يعمل ممسحته الرسمية في صفحة ما بشدة اكثر من تلك .
ولكن اذا اتخذ الملوك الساميون عامة ، وملوك بيبلوس خاصة لقب بعل او ادونيس، يترتب عليه انهم ربما ضاجعوا إلهة المدينة ، البعلة عشتاروت . ونحن نعرف بالتأكيد أنه كان في صور وصيدا ملوك ممن كانوا كهنة لعشتاروت .

كان المزارعون الساميون يعتقدون ان بعل او اله الارض هو منتج خصبها ، فهو الذي ينتج القمح والخمر والتين والزيت والقنب بواسطة مياهه التي تبعث الحياة ـ وفي الاقسام المجدبة في

العالم السامي كثيراً ما تكون هذه المياه عيوناً وجداول وسيولاً جوفية بدلاً من ان تكون مياه امطار السماء . وفضلاً عن هـذا، « فان ما للاله من قوة بعث واحياء لم تقتصر عــلى النباتات في الطبيعة فقط ، بل كان يعزى اليها ايضاً تكاثر الحيوانات وتضاعف الابقار والماشية ، واهم من ذلك تناسل سكان الارض . وذلك ان تكاثر كل شيء حي مرتبط في النهاية بخصب التربة ، ولما لم تتعلم الاقوام البدائية التفريق بدقة بين انواع الحياة المختلفة ، فانها كانت تتخيل ان الحيوان كالنبات يخرج من الارض وله جذور فيهـا . فالارض هي ام الاشياء كلها في اكثر الفلسفات الاسطــورية ، وتشبيه حياة الانسان ، او حياة جماعة من الناس ، بحياة الشجرة - وهو تشبيه شائع في الشعر السامي وغيره من الشعر البدائي - لم يكن في الأصل مجازياً فقط . فحيثما يُعزَى النبات الى قوة إلهية معينة ، يرفعْ عبادها إلى هذه القوة نفسها شكرهم وولاءهم من اجل ازدياد الماشية والناس ، ويقدمون بكر المواليد واول الفواكه في معابد البعليم . ومن اعم الاسماء التي كان يطلقها الآباء عــلى ابنائهم وبناتهم اسماء تعني ان الولد عطية من الله . ومجمل القول ، ان البعل كان يعد مبدأ التوالد الذكر ، وزوج الارض التي يقوم بتخصيبها . ولذلك لما كان السامي يتمثل قوى الطبيعة التنــاسلية كذكر وانثى ، كبعل وبعلة ، يبدو انه كان بوجه خاص يمثــل قوة الذكر بالماء ، وقوة الأنثى بالارض . وبموجب هذه الفكرة تكون النباتات والاشجار ، والحيوانات والناس ، نسل البعــل والبعلة او أولادهما .

اذن ، اذا سمح للملك السامي ، اوبالاحرى اذا طلب اليه ـ في بيبلوس وغيرها ـ ان يمثل الاله ويتزوج الالهة ، لم يكن المقصود من تلك العادة الاضمان خصب الارض وتكاثر الناس والماشية بواسطة السحر التقليدي (١) . ولدينا ما يحدو الى الاعتقاد بان مثل هذه العادة كان شائعاً في اقسام اخرى من العالم القديم ، ولا سيما في « نيمى » حيث كانت قوى كلا الذكر والانثى - ديانوس وديانا - في احد مظاهرها تمثل قوة الاحياء في المياه

كانت ملوك بيبلوس تحمل الاسم القديم « كينيراس » ، وقدامر يومبى الكبير بقطع رأس احدهم لاسرافه في الطغيان . ويقال ان سلفه كينيراس الذي تذكره الاساطير كان قد شيد معبداً لافروديتي – اي عشتاروت – في مكان في جبل لبنان يبعد مسير يوم عن العاصمة . ولعل المكان هو «افقه» عند منبع نهر ادونيس (نهر ابراهيم) على منتصف الطريق بين بيبلوس وبعلبك . اذ كان في افقه حرش ومعبد مشهور لعشتاروت هدمة الامبراطور قسطنطين بسبب الشكل الكريه الذي كانت تتخذه العبادة فيه . وقد اكتشف الرحالة المحدثون موقع الهيكل قرب قرية صغيرة لا تزال تحمل اسم «افقه» في اعلى وادي ادونيس ، وهو واد سحيق الغور رائع الجمال ، كثير الشجر . والقرية تقع في آجام فاتنة من شجر الجوز . وعلى بعد قليل منها يتدفق النهر من كهف على سفح مدرج هائل ، كله من الصخور الشاهقة ، ثم ينصب في شلال اثر شلال الى ان تبتلعه اعماق الوادي الرهيبة . وكلما انحدر النهر اشتدت الخضرة

---

(١) او السحر الدائي (homoeopathic magic)

كثافة حوله ، وهي تنبثق من بين ثنايا الصخور وشقوقها ، فتنشر غشاء اخضر فوق السيل الهادر تارة والهامس اخرى ، في احشاء الهوة السحيقة . ان هناك لذة يكاد ينتشي المرء بهـا في عذوبة تلك المياه المندفعة ، وفي حلاوة الهواء الجبلي ونقـاوته ، وفي خضرة النبت الزاهية المشرقة . كان الهيكل يشغل احد الحقول المواجهة لمنبع النهر والمشرفة على منظر اخاذ ، وما زالت بعض الحجـارة الكبيرة وعمود رائع من الغرانيت تشير الى موقع الهيكل . ومن وراء هدير السيل وزبده ترتفع عين الناظر الى الكهف ومنه الى اعالي الجبل السامق . والقمة شاهقة الارتفاع حتى لتبدو الاغنـام وهي ترعى على اطرافها وكأنها النمل اذ ينظر اليها المرء من تحت على بعد بضع مئات من الاقدام . ما اشد ما يفعل المشهد في النفس حين يتجه الناظر ببصره نحو البحر ، وقد غمرت الشمس الغور العميق بفيض من الذهب ، وابرزت للعيان على جوانب الجبل مـا هو اشبه بالقلاع والحصون الرائعة وكست برفق الوان الخضرة المتباينة في الغابات المنبثة في اعماقه !..

ففي هذا المكان ، كما تروي الاساطير ، التقى ادونيس بافروديتي لاول مرة او لآخر مرة ، وفي هـذا المكان دفن جسده المهشم . وانى للخيال ان يبتدع مشهداً اجمل من هذا لقصة حب فاجـع وموت أليم؟..والوادي وان يكن في معزل ليس بالمهجور . فانت ترى هنا وهناك ديراً او قرية تبرز ازاء السماء على قمة شاهقة ، او تتعلق بجوانب تلعة عمودية الارتفاع فوق زبد النهر وصخبه . وفي المساء تتألق الاضواء خلال الظلام فتدل على وجود الانسان في

منحدرات تبدو وكأن الانسان لن يستطيع ادراكها .

ويبدو ان هذا الوادي الجميل برمته كان في العصور الغـابرة موقوفاً على ادونيس ، وما زالت ذكراه تتردد فيجوانب الوادي حتى اليـوم . فالمرتفعات التي تحيط به تعلو قمتها في اماكن عدة خرائب النصب التي اقيمت لعبادته ، وبعضها معلق فوق هاويات مريعة ، يدوخ المرء اذا نظر الى اعماقها ، ورأى النسور تحلق فوق عشوشها في المنحدرات السفلى . وفي «غينة» احد هذه النصب . فقد نقرت زاوية في الصخر ، وعلى صخرة كبيرة حفرت صورة ادونيس وافروديتي . وهو مصور وفي يده رمح ينتظر هجوم دب ، بينما قد جلست هي في وضع حزين (١) . ومن المحتمل جداً ان صورة المرأة المحزونة هي « افروديتي النائحة في لبنان » التي يصفها مكروبيوس ، والزاوية المنقورة في الصخر هي ضريح حبيبها . فقد كان عباد ادونيس يعتقدون ان الههم يموت كل سنة جريحاً في الجبال فيتضمخ وجه الطبيعة كل سنة بدمه المقدس . ولذلك كانت فتيات سوريا في كل سنة يبكين لموته وهو في شبابه ، بينما تزدهر الشقائق — وهي زهرته — بين ارز لبنان ، ويجري النهر محمرّاً الى البحر ، فيحيط سواحل البحر المتوسط المتعرجة بخيوط قرمزية ، كلما هبت الريح نحو الساحل .

---

(١) ارنست رينان Mission de Phienicie ص ٢٩٢-٢٩٤ يبدو ان المؤلف واثق من ان الحيوان المهاجم هو دب ، لا خنزير بري .

الفصل الثالث

ادونيس في قبرص

لا تبعد جزيرة قبرص اكثر من إبحار يوم واحد عن الساحل السوري . بل ان جبالها في ايام الصيف الرائعة تُرى من الساحل معتمة، ولهيب الشمس الغاربة من ورائها . وكان من الطبيعي ان تجتذب هذه الجزيرة اليها قوماً اولعوا بالتجارة وركوب البحار كالفينيقيين لكثرة ما فيها من مناجم للصفر ،واحراش لشجر الجوز والارز ، ولعلها لوفرة قمحها ونبيذها وزيتها لاحت في اعينهم كأرض الميعاد اذا قورنت بشح الطبيعة في ساحلهم الصخري المحصور بين البحر والجبال . وهكذا استقروا فيها منذ عهد باكر جداً ، ومكثوا فيها زمناً طويلاً بعد ان استوطن الاغريق ايضاً سواحلها ، لاننا نعرف من النقود والنقوش المكتشفة ان ملوكاً فينيقيين حكموا مدينة «كيتيوم» حتى زمن الاسكندر الكبير . وقد احضر المستعمرون معهم بالطبع آلهتهم من بلادهم الاصلية ، فعبدوا «بعل لبنان» — ومن المحتمل جداً انه كان ادونيس نفسه — وفي بلدة «اماثوس» على الساحل الجنوبي اوجدوا طقوس عبادة ادونيس وافروديتي ، او بالاحرى عشتاروت . وقد كانت هذه الطقوس هنا — كما في بيبلوس — تشبه عبادة اوزيرس المصرية شبهاً حدا بالبعض الى الاعتقاد بان ادونيس في اماثوس إنما هو اوزيرس.

وقد كان يعبد ايضاً في اماثوس «ملكارث» الصوري او «مولوخ»، وقد اثبتت القبور المكتشفة بجوار المدينة انها بقيت فينيقية حتى زمن متأخر .

غير ان اعظم مكان لعبادة افروديتي وادونيس في قبرص كان في بلدة «بافوس» في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة . وما من شك في ان بافوس كانت من ارقى الدويلات التي كانت الجزيرة تتألف منها حتى اواخر القرن الرابع قبل الميلاد . فاراضيها كلها تلال وهضاب ضيقة ، تتخللها الحقول والكروم ، وتخترقها انهار حفرت لنفسها على مر الزمن مجاري بعيدة العمق تجعل السفر في داخل البلاد عسيراً ومرهقاً . ويعزل بافوس عن بقية الجزيرة جبل اوليمبوس الشاهق (واسمه اليوم ترودوس) والثلوج تكسو قمته اكثر ايام السنة ، كما انه يمنع عن بافوس الرياح الشمالية والشرقية . وعلى المنحدرات ما زالت بقية باقية من احراش الصنوبر تكسو في كنفها هنا وهناك اديرة وصوامع ، وحولها من المناظر الساحرة ما يشبه مناظر جبال «الابناين» في ايطاليا . اما مدينة بافوس القديمة فقد كانت مبنية على قمة تل يبعد حوالي الميل عن البحر، واما المدينة الحديثة فقد نشأت على الساحل على بعد عشرة اميال . وكان هيكل افروديتي في بافوس القديمة (واسمها اليوم كوكليا) من اشهر معابد الزمن القديم وابعدها صيتاً . والظاهر انه حافظ على خصائصه الجوهرية من اقدم الازمنة حتى متأخرها . وذلك اننا نجد الهيكل مصوراً على نقود ترجع الى العصر الامبراطوري ، وهذه الصور تكاد تطابق نماذج ذهبية صغيرة لمعبد ، وجدت في ضريحين من

قبور «مايكيناي» . ففي النقود والنماذج نجد واجهة يعلوها زوج من الحمام ، مقسمة الى ثلاثة اقسام او معابد، الاوسط منها يتوّجه بنيان شاهق . وفي النماذج الذهبية يحتوي كل معبد على عمود واقف على قرنين : والبنيان الاوسط يتوّجه زوجان من القرون ، الواحد ضمن الآخر ، وكلا المعبدين على الطرفين يتوجه قرنان وحمامة واحدة قد حطت على القرن ا لجانبي . امـا في النقود ، فكلا المعبدين الجانبيين يحتوي على عمود او شيء يشبه الشمعدان المتشعب: ويحتوي المعبد الاوسط على مخروط على جانبيه عمودان عاليان ، ينتهي كلاهما بقمة عليها كرتان ، وبين قمم الاعمدة نجمة وهلال .

ولا ريب ان الحمائم هي حمائم افروديتي المقدسة او عشتاروت ، والقرون والاعمدة تذكرنا بالرموز الدينية المماثلة التي اكتشفت في القصر العظيم الذي يرجع الى ما قبل التاريخ ، والذي وجد في كنوسوس بجزيرة كريت ، وفي نصب كثيرة اخرى تعود الى العصر الميكيني او المينوسي (٣٠٠٠ — ١٥٠٠ق.م.) في اغريقيا واذا صح رأي المنقبين من ان النماذج الذهبية نسخت عن الهيكل في بافوس ، فان الهيكل لم يطرأ عليه تغيير يذكر في بحر الف سنة ونيف . ذلك لان القبور الملكية في « مايكيناي » لا يمكن ان تكون متاخرة في تاريخها عن القرن الثاني عشر ق.م.

فالظاهر اذن ان معبد افروديتي في بافوس عريق في القدم . ويقول هيرودوتس ان منشئيه كانوا مستعمرين فينيقيين جاءوا من

هليوبوليس او بعلبك في لبنان ، كان العرف يقضي على كل عذراء ان تضاجع غريبـــاً في هيكل عشتاروت ، فكانت النساء ابكاراً وثيبات يبرهن على حبهن للالهة على هذا المنوال . غير ان الامبراطور قسطنطين قضى على هذا العرف ، وهدم الهيكل ، وبنى كنيسة عوضاً عنه .

وكانت النساء في الهياكل الفينيقية يقدمن على البغاء لقاء اجر يدفعه الرجال خدمة للدين ، وهن يعتقـــدن انهن بذلك يسترحمن الالهة ويكتسبن رضاها . « وكان القانون عند الاموريين ينص على ان المرأة التي تنوي الزواج عليها ان تقضي في الزنا سبعة ايام عنـد بوابة الهيكل . »

وفي بيبلوس كان الناس يحلقون شعرهم كل سنة في موعد النحيب على ادونيس . بيد ان النساء اللواتي يرفضن ان يضحـــين بشعرهن كان من الواجب عليهن ان يستسلمن للغرباء في يوم معين من ايام الاحتفال ، وما يحصلن عليه من نقود من هذا العمل يقدمنه للالهة . وربما كانت هذه العادة تلطيفاً لقاعدة اقدم كانت سارية في بيبلوس وغيرها تلزم النساء كلهن دون استثناء على البغاء في سبيل الدين . وقد سبق ان اشرت الى احد الاسباب التي كان من اجلهـا يُعَد تقديم الشعر عند المرأة مساوياً لتقديم عفافهـــا . وقد كتب ان الفتيات في ليديا كن يضطرن الى البغاء لكي يحصلن على بائنـــة لانفسهن ، ولكن لعل الحقيقة هي انهن كن يفعلن ذلك تديناً لا توفيراً للمال . وتدعم هـــذا الفرض كتابة حجرية وجـــدت في «طرالس» في ليديا تثبت ان عادة البغاء المقدس بقيت في ذلك البلد

حتى القرن الثاني بعد الميلاد ، وتنص على ان امراة تدعى «اوريليا اميليا» لم تخدم الاله كبغي حسب اوامره الصريحة هي وحدها ، بل ان امها ومن سبقتها من نساء في اسرتهـــا فعلن ذلك ايضاً . وهذا النص علني ، منقور على عمود مرمري يحمل تقدمة دينية ، مما يدل على ان حياه كتلك او اسرة كتلك لم يلحقها عار ولا ذم .

وفي ارمينيا كانت اشرف العائلات تكرس بناتها لخدمة الالهة « انايتيس » في هيكل في اكيليسينا ، حيث كانت الغيـــد يعملن كبغايا مدة طويلة قبل ان يتزوجن . ولم يتردد احد في اتخـــاذ احداهن زوجة له عندما تنتهي خدمتها . وكذلك كانت جماعة كبيرة من الزانيات المقدسات يعبدن الالهة « ما » في بلدة كومانا في بنطس ، التي كان يؤم شطرها في الموسم كل سنتين جمع غفـير من الرجـــال والنساء من المدن المجاورة لكي يقدموا للالهـــة نذورهم وضحاياهم .

اذا دققنا النظر في جميع الادلة في هذا الموضوع (وسنستعرض بعض هذه الادلة امام القارىء في حينه) فبامكاننا ان نستنتج ان الهة كبرى هي « الالهة الام » تمثل في شخصهـــا قوى التناسل في الطبيعة كلها ، كانت معبودة اقوام كثيرة في آسيا الغربية ، وقـد اطلقوا عليها اسماء متعددة غير ان الاساطير المتعلقة بهـا والمراسيم الخاصة بعبادتها كلها متقاربة متشابهة . ونستنتج ايضاً انه يقرن بها دائماً عاشق ، بل عدد من العشاق ، لهم صفة الالوهـــة ولكنهم يموتون ، تضاجعهم كل سنة ، ومضاجعتهم تعد لازمة لتكاثر الزرع والحيوان ، وفضلاً عن ذلك كان هـذا الجماع الاسطوري موضع

التقليد فيكرره على الارض فعلاً – وان يكن موقتاً – الرجال والنساء بالجامعة في هيكل الآلهة ، وذلك لضمان إثمار الارض وتكاثر الانسان والحيوان . فاذا كانت فكرة « الالهة الام » هذه تعود – كما يبدو من المحتمل – الى زمن كان فيه الزواج غير معروف ، او يكاد يكون غير مقبول من الناس لانهم يرون فيه تعدياً خلقياً على حقوق الجماعة ، فبوسعنا ان ندرك لماذا كانت الالهة دائماً تعد غير متزوجة وغير عفيفة معاً ، ولماذا كان عبادها مضطرين الى تقليدها في هذا الصدد . لانها لو كانت زوجة الهية لزوج الهي ، لكان من الطبيعي ان يقلدها الرجال والنساء بزواج شرعي ، ولما احتاجوا الى نظام البغاء والمخالطة الجنسية لكي يدركوا هدفهم ، على قاعدة السحر التقليدي ، لان هذا النوع من السحر كان حينئذ يجبرهم على السعي وراء فكرة الخصب عن طريق النكاح المشروع ضمن حدود الزواج .

ولعل كل امرأة في السابق كان عليها ان تخضع مرة واحدة على الاقل في حياتها لممارسة الزنا ، لان مضاجعة النساء حتى قبل ذلك الوقت كان حقاً لكل ذكور القبيلة . ولكن على مر الزمن ، إذ ازداد ميل الناس الى الزواج الفردي ، وجعلوا ينفرون شيئاً فشيئاً من الشيوعية القديمة ، صاروا يشمئزون بازدياد مضطرد من العادة القديمة ، حتى ولو كان ذلك مرة واحدة في حياة المرأة ، فعمدوا الى وسائل شتى يتجنبون بها تلك الضرورة التي ما زالوا يقرونها نظريا . ومن وسائل التجنب هذه تقديم المرأة شعرها بدلا من جسمها ، او على ما يظهر ، استبدال العمل الفاحش برمز فاحش .

ولكن بينما استطاعت اغلبية النساء ان يحافظن على اصول الدين دون ان يضحين بعفافهن ، بقي الرأي سائداً من انه لا بد لمصلحه البلاد جمعاء من ان ينفذ عدد منهن القوانين القديمة على الشكل القديم. فاصبحت هؤلاء بغايا إما امد الحياة ، او لبضع سنوات في احد الهياكل . واذا تكرسن لخدمة الدين أسبغت عليهن صفات القدسية ، ولم يجد الشعب مغمزاً في مهنتهن قط ، بل انهم عدوا تلك المهنة شرفاً رفيعاً لصاحبتها ، فنظروا الى بغايا الهيكل نظرة فيها مزيج من الدهشة والتوقير والشفقة ، كتلك النظرة التي ينظرها الناس في بعض انحاء العالم الى النساء اللواتي يردن تمجيد الله بطريقة معاكسة ، وذلك بامساكهن عن ممارسة وظائف جنسهن الطبيعية وارق العلاقات الانسانية . وهكذا تجد البشرية لحماقتها منفذين على طرفي نقيض ، كلاهما ضار ، وكلاهما يؤسف له .

وفي قبرص زعموا ان عادة البغاء الديني وضعها الملك كينيراس وان بناته اتبعنهـا — وهن اخوات ادونيس — فغضبت عليهن افروديتي ، فجعلن يضاجعن الغرباء ، وقضين اواخر ايامهن في مصر . ولعل قضية غضب افروديتي على هذا النحو ادخلها مؤرخ متأخر ، لانه وجد في سلوك لا تقبله اخلاقه هو امراً لا يمكن الا ان يكون عقاباً انزلته الآلهة ، بدلاً من ان يكون تضحية امرت بها دوماً كل عبادها . وعلى كل حال ، فان القصة تدل على ان اميرات بافوس لزمن العادة ، دون فرق بينهن وبين النساء الوضيعات الاصل .

والتاريخ المأثور لسلالة كنيراس الملكية والكاهنية يعلمنـا اشياء كثيرة . ويقول هذا التاريخ ان رجلاً سورياً اسمه «صندقس»

رحل الى كيليكيا وتزوج « فرناقي » ابنة «ميغاسـارس » ملك حيريا واسس بلدة «قلندريس»فولدت له زوجته ابناً اسماه كينيراس ، واذ نشأ هذا واشتد ساعده ، قطع البحر الى قبرص ومعه جمع من الناس ، وهناك تزوج «ميثارمي » ابنة « بغماليون » مالك الجزيرة واسس مدينة بافوس ويبدو ان هذه الاقاصيص التـاريخية تشمل ذكريات ممالك في كيليكيا وقبرص كانت وراثتـها عن طريق الانثى، ويتربع على عرشها احياناً اجانب تزوجوا الاميرة الوارثة بيد ان هناك من الدلائل ما يشير الى ان كينيراس لم يكن في الحقيقة مؤسس الهيكل في بافوس. فان قصة اقدم من ذلك تعزو التاسيس الى شخص يدعى «ايرياس» كان البعض يعده ملكاً والبعض يعده الآلهة نفسها . وفضلاً عن ذلك فلقد كان على كينيراس ان يقاوم بعض المنافسين . فهناك سلالة «التاميراسيين»وهي اسرة من العرافين يرجعون بنسبهم الى « تاميراس » وهو عراف صقلي . وقد اتفق الطرفان في باديء الامر على ان ترأس العائلتان الحفلات معاً ، ولكن اضطر التاميراسيون اخيراً الى التنحي لعائلة كينيراس . وقـد قيلت في كينيراس اقاصيص كثيرة . فهو كاهن لا فروديتي كما هو ملك، وغدت ثروته مضربِ الامثال . ويظهر انه خلف لنسـله ثروته وجاهه العريض ، لانهم بقوا ملوكاً على عرش بافوس وكهنة في خدمة الآلهة ، ودفنت اجسادهم مع جسد كينيراس في الهيكل نفسه . غير ان هذه السلالة انحطت وكادت ان تنقرض عند القرن الرابع ق.م. ولما طرد الاسكندر الكبير ملك بافوس لجوره وبغيه، راح رسله يبحثون عن رجل من بقايا السلالة القديمة لكي يضعوه

على عرش اسلافه فوجدوا في النهاية واحداً منهم يعيش مغموراً ويكسب رزقه كزراع خضار . وقد كان يسقي زرعه عندما فاجأه رسل الملك واخذوه وكله دهشة الى سيدهم لكي يضع التاج على راسه . ولكن رغم انحطاط الاسرة المالكة ، بقي هيكل الآلهة ، بما قدم اليه الملوك والاغنياء من الاموال ، محافظاً على شهرته بالثراء حتى العصور الرومانية . ولما طرد المصريون ملكهم « بطليموس اوليطيس » سنة ٥٧ ق.م . ، عرض عليه « كاتوا » الروماني ان يكون كاهناً لبافوس ، في ذلك من الجاه والمال ما يعزيه عن فقدان العرش .

ومن القصص التي قيلت عن كينيراس ، سلف هؤلاء الملوك الكهان وابي ادونيس قصص تسترعي الانتباه. فقد قيل انه انجب ابنه ادونيس بمضاجعته لابنته «ميرها» في عيد الاله القمح . وفي هذا العيد كان من دأب النساء ان يتسربلن بالبياض ويقدمن اكليل من السنابل كباكورة الحصاد ، ويلزمن العفاف التام لتسعة ايام. ومن المستبعد ان تكون هذه القصص المأثورة دون اساس من الصحة كما انه من المستبعد ان تشير الى مجرد فورة فجائية من شهوة مجرمة . ولهذا نظن انها مبنية على عادة كانت متبعة لسبب معين في ظروف خاصة. في البلاد التي تتوارث فيها الملكية عن طريق النساء ، يرقى الملك العرش بحكم زواجه من الاميرة الوارثة ، لانها هي الملكة الحقيقية ، ولهذا كثيراً ما كان الامير يتزوج اخته ولية العهد ، لكي يحصل عن طريق زواجها على التاج ، وان لم يفعل ذلك لبس التاج رجل آخر قد يكون غريباً . افلا يمكن ان

تكون هذه القاعدة الوراثية الدافع للملك لكي يضاجع ابنته ؟!.
لأن من النتائج الطبيعية لهذه القاعدة الوراثية ان يخلي الملك العرش عندما تموت زوجته الملكة ، لانه لم يرقه الا بسبب زواجه منها . فاذا انتهى ذلك الزواج انتهى حق الملك في العرش وآل الى زوج ابنته . فاذا اراد الملك ان يستمر في الحكم بعد وفاة زوجته ، كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها ان يفعل ذلك شرعاً هي ان يتزوج ابنته ، وبهذا يحافظ عن طريق ابنته على اللقب الذي حصل عليه سابقاً عن طريق امها !..

وقيل ان كينيراس كان فائق الجمال ، وان افروديتي نفسها وقعت في هواه . فيلوح – كما لاحظ البحاثون – ان كينيراس كان بمثابة نسخة عن ابنه ادونيس الذي عشقته ايضاً هذه الالهة الملتهبة العواطف . ثم ان هذه القصص عن غرام افروديتي باثنين من الاسرة المالكة لا يمكن فصلها عن القصة المأثورة عن بغماليون ، ملك قبرص الفينيقي ، الذي زعموا انه وقع في غرام تمثال افروديتي فاخذه الى مضجعه . فاذا تذكرنا ان بغماليون هو حمو كينيراس ، وان ابن كينيراس هو ادونيس ، وان ثلاثتهم على التعاقب كانوا موضع هوى من افروديتي ، فلا بد لنا ان نستنتج ان الملوك الفينيقيين الاوائل لبافوس او ابناءهم ، ادعوا باستمرار انهم ليسوا كهنة الالهة فحسب بل عشاقها ايضاً – وبعبارة اخرى انهم كانوا بصفتهم الرسمية يمثلون شخص ادونيس . ومهما يكن من امر فانه يقال ان ادونيس حكم قبرص ، ومن المؤكد ان لقب ادونيس كان يحمله بانتظام ابناء ملوك الجزيرة الفينيقيين جميعهم . اجل ، ان

معنى اللقب الدقيق هو «السيد» ليس الا . غير ان الاساطير التي تقرن هؤلاء الامراء القبرصيين بآلهة الحب تحدو بنا الى الظن بانهم ادعوا بطبيعة ادونيس الآلهية كما نسبوا الى انفسهم وقاره البشري .

وقصة بغماليون تشير الى الاحتفال بعرس مقدس يتزوج فيه الملك تمثال افروديتي ، او عشتاروت . فاذا كان الامر كذلك ، كانت القصة صادقة من ناحية ، لا عن بغماليون فحسب بل عن الرجال الكثيرين الذين خلفوه ايضاً ، ولكن من المنتظر ان تقال القصة عن بغماليون لان ذلك اسم شائع الملوك الساميين عامة ، والقبرصيين خاصة . وعلى كل فان بغماليون كان اسم ملك صور المشهور الذي فرت منه اخته « ديدو » (ملكة قرطاجنة فيما بعد). وكان احد ملوك كيتوم وايد اليوم في قبرص في زمن الاسكندر الكبير يدعى ايضاً بغماليون ، او بالاحرى بومياثون وهو الاسم الفينيقي الذي حوره الاغريق الى بغماليون . ثم انه جدير بالذكر ان اسمي بغماليون وعشتاروت وجدا سوياً في نقش قرطاجني على مدالية ذهبية اكتشفت في ضريح في قرطاجنة ، واحرف النقش من اقدم الاشكال .

ولما قيل ان الملك كينيراس هو الذي انشأ عادة البغاء في بافوس وان بناته ايضاً جرين عليها ، فلنا ان نستنتج ان ملوك بافوس لعبوا دور العريس في طقوس اقل براءة من مجرد الزواج من تمثال . فكان في الحقيقة على كل منهم في بعض الاعياد المعينة ان يضاجع بغياً او اكثر من بغايا الهيكل ، فتقوم هذه بدور عشتاروت ازاء ما يقوم به هو من دور ادونيس . واذا كان

الامر كذلك ، فقــد كان من الصحة شيء كثير في تهجم الآباء المسيحيين الاوائل على افروديتي ، اذ قالوا ان افروديتي معبودة كينيراس ليست الا زانية ساقطة . وكان مواليد هـذه المضاجعة يعدون ابناء الاله وبناته ، ثم يصبحون بعد زمن بدورهم آباء آلهة والهات ، كآبائهم وامهاتهم من قبل . ولهذا فمن المحتمل ان كل الهياكل التابعة للآلهة الآسيوية العظمى ، حيث كان البغاء المقدس شائعاً ، كانت مكتظة بالآلهة البشرية ، وهم نسل الملك من زوجاته وجواريه وزانيات المعبد . وقد يخلف اي من هؤلاء اباه عـلى العرش او يضحي عوضاً عنه كلما احتاجت الحروب والنوائب ، حسب العرف ، الى تضحية روح ملكية . وضريبة كهذه يدفعهـا الملك من بين نسله الكثير في سبيل بلاده لن تقضي عـلى الذرية الآلهية ولن ينسحق لهـا قلب الاب ، وله من الابناء هذا العدد الغفير . ومهما يكن من امر ، مـا دامت الادلة تثبت ان الملوك الساميين كانوا يعدون ايضاً آلهة وراثيين ، فمن السهل تعليل كثرة الاسماء الشخصية التي تعني ان حاملها ابن اله او ابنته ، اخـاه او اخته ، اباه او امه ، ولا نحتاج الى التأويل الغريبة التي يلجأ اليها البحاثون لكي يتجنبوا معنى هذه الاسماء الواضح . وتدعم هـذا التفسير عادة مماثلة في التسمية : ففي مصر ، حيث كان الملوك يعبدون كآلهة ، كانت الملكة تدعى « قرينة الاله » او «ام الاله» ، ويطلق لقب «ابي الاله» لا على ابي الملك الحقيقي فحسب ، بل عـلى حميه ايضاً . وعلى هذا المنوال ربما سمحت الاقوام السامية للرجل الذي ارسل ابنته الى الحريم الملكي ان يدعو نفسه « ابا الاله » .

واذا حق لنا ان نحكم على كينيراس من اسمه ، فان هـــذا الملك السامي كان كالملك داود عازفاً على القيثارة . فمن الواضح ان كلمة كينيراس مقرونة بالكلمة الاغريقية « كينيرا » اي «قيثارة»، وهذه مشتقة من الكلمة السامية « كينور» اي «قيثارة» ، وهي الكلمة المطلقة على الآلة التي عزف عليها داود امام شاؤل . ولست اظننا مخطئين اذا قلنا ان موسيقى القيثارة في بافوس كما في اورشليم لم تكن مجرد ملهاة تزجى بها ساعات الفراغ ، بل كانت قسماً من الخدمة الدينية ، ويعزى اثر الحانها المطربة ، كأثر الخمر ، الى وحي الاله المباشر . وما من ريب في ان قساوسة الهيكل النظاميين في اورشليم كانوا يتنبأون بمرافقة موسيقى القيثارات والقـــانون والصنوج ، ويلوح ان القساوسة غير النظـــاميين - كما يمكننا ان نسمي الانبيـاء - كانوا يعتمدون على الموسيقى لتبعث فيهم روح النشوة التي عدوها اتصالاً مباشراً بالاله . ولذا فقد جاء في التوراة ذكر جماعة من الانبياء نزلوا من مكان مرتفع وهم يعزفون عـلى القانون والدف والمزمار والقيثارة ، وراحوا يتنبأون وهم يمشون. ولما اتحدت قوات يهوذا وافرايم وراحوا يقطعون براري موآب مطاردين العدو ، لم يجدوا ماء لثلاثة ايام ، وكادوا من العطش ان يموتوا هم وحيواناتهم . وبينما هم في هذه المحنة قام النبي اليشاع ، الذي كان يرافق الجيش ، ودعا مغنيـــاً وامره بالعزف . واذ فعلت الموسيقي فعلها في نفسه امر جنوده بان يحفروا خنـادق في المجرى الرملي للوادي الجاف الذي كان تحت اقدامهم . ففعلوا ذلك ، وفي صباح اليوم التالي كانت الخنادق قد امتلأت بالماء الذي تسرب اليها

من تحت الارض من الجبال المقفرة التي على الطرفين !..

ونجاح النبي في ايجاد الماء في الفلاة يشبه نجاح عزّافي الماء المعاصرين، وان كانت طريقته تختلف عن طريقتهم . وبهذه المناسبة ، فقد ادى النبي خدمة اخرى لشعبه . وذلك ان الموآبيين ، حين اختفوا في معاقلهم بين الصخور ، رأوا شمس الصحراء الحمراء منعكسة في الماء ، فظنوها دم اعدائهم او رمزاً لدمهم ، فتشجعوا وهاجموا المعسكر ، فانهزموا وقتل منهم نفر كثير .

وكما كانت سحابة الكآبة ، التي تظلم لها نفس شاؤل المتقلبة بين حين وآخر ، تعد روحاً شريرة يوسلها الرب لتعذيبه ، كانت الحان القيثارة الحنون ، التي ترفق بافكاره المضناة وتسري عنه الهموم ، تلوح للملك المثقل بالشجون كصوت الله او صوت ملاكه يهمس في اذنيه الدعة والسلام . حتى في ايامنا هذه كتب كاتب ديني كبير يقول ، وقد اسره سحر الموسيقى : (ان النغمات الموسيقية بما لها من قوة على الهاب الدم واذابة القلب ، لا يمكن ان تكون مجرد اصوات جوفاء : لنها لتأتي من كون علوي ، انها من صب الالحان الازلية ، بل هي صوت الملائكة وتراتيل القديسين) (الكاردينال نيومان) .

لا شك في ان اثر الموسيقى في تطور الدين موضوع ممتع يستحق الدرس . فلا ريب عندنا ان هذا الفن وهو اقرب الفنون الى النفس واشدها فعلاً فيها ، قد ساهم كثيراً في خلق العواطف الدينية والتعبير عنها ، اي ان الموسيقى لم تخدم المعتقدات فقط كما يبدو لاول وهلة ، بل اثرت في تكوينها الجوهري . فقد قام الموسيقي

بدوره في تكوين الدين كما قـــام النبي والمفكر . فلكل معتقد موسيقاه ، ويكاد ان يكون في الامكان وضع الفرق بين كل معتقد وآخر بالتدوين الموسيقي . فالمسافة التي تفصل مثلاً بين احتفالات «كيبيلي» الهوجـــاء وبين الوقار الرائع في طقوس الكنيسة الـكاثوليكية ، يمكن ان تقاس بالهوة السحيقة بين ضجيج الصنوج والطبول المتنافر ، وبين انسجام الحان بالسترينا وهاندل. ان روحاً مختلفة لتتنفس في الموسيقى المختلفة . (١)

والقصة القديمة التي تجعل من ابولو (اله الموسيقى والشعر) صديقاً لكينيراس قد تكون مبنية على الاعتقاد بان كليهما مولع بالقيثارة. ولكن لنا ان نتساءل الآن ، ما هي الوظيفة التي كانت تؤديهـــا الموسيقى الوترية في الطقوس الاغريقية والساميّة ؟.. هل كان من وظيفتها ان تثير في الناطق بلسان الاله نشوة النبوة ؟.. ام ان تنفي عن الامكنة المقدسة والخدمة المقدسة، الجن والشياطين، كأنها بذلك ترسم حلقة حول المتعبدين ليس في مقدور اي شر ان يقتحمها ؟.. وبالاختصار ، هل كانت وظيفتها استحضار ارواح الخير ، ام نفي ارواح الشر ؟.. هل كان الغرض منها الالهام ام طرد الشياطين؟..

ان الامثال المستقاة من حياة اليشاع وداود وقصصهما تبرهن على ان العبرانيين استخدموا موسيقى القيثارة لكلا الغرضين . ففي حين استخدمها اليشاع لكي يصل في النشوة الى ذروة النبوة ، لجأ

---

(١) من الممتع لو اتبعنا نفس الخطة في البحث عن اثر الفنون الاخرى في الدين : ماذا كان تاثير فيدياس المثال على الدين الاغريقي ؟!. وما الدين الذي تدين به الكنيسة الكاثوليكية للرسام « فرا انجليكو » ؟.

اليها داود لـكي ينفي الارواح الشريرة عن شاؤل . اما عند الاغريق في الازمنة التاريخية، فلا يبدو ان موسيقى الاوتار استعملت لاثارة النشوة في الناطق بلسان ابولو او غيره من آلهة الوحي ، بل الامر بالعكس ، اذ ان الذي اعجب به الذهن الاغريقي هو اثر الموسيقى الوترية في تسكين العواطف وتهدئة النفس ، اذا قورن بالاثر الثائر الذي تتركه موسيقى المزمار . بيد ان المرء المتدين ،او المرء الذي يعتقد بالخرافات ، قد يعزو سكون العواطف وهدوء النفس بفعل الموسيقى الوئيدة العذبة ، الى التخلص من الارواح الشريرة – اي الى طرد الشياطين . وتمشياً مع هذا الرأي يقول «بندارس» ، اذ يتحدث عن القيثارة ، ان كل ما يكرهه زفس في الارض والبحر يرتعد من صوت الموسيقى . غير ان اقتران القيثارة بالنبي الخرافي «اورفيوس» وبإله الوحي ابولو يدل عـلى ان الاغريق في غابر ايامهم ربما استخدموا الحانها ، كما استخدمها العبرانيون ، ليوجدوا تلك الحالة الذهنية الرفيعة التي تتلاحق فيهـا الخيالات وتزدحم ، فيعدها الخيالي وحياً إلهياً . ولكن اي هاتين الوظيفتين ، الايجابية ام السلبية،الموحية ام الحامية، غلبت في دين ادونيس؟.. لا نعرف. لعل الاثنتين لم تتميزا بوضوح في اذهان عبّاده .

والعنصر الذي لا يتغير في اسطورة ادونيس هو موته المبكر موتاً عنيفاً . فاذا كان ملوك بافوس يمثلون ادونيس بشخصهم دائماً، علينا ان نتساءل أكانوا يقلدون إلههم في الموت كما في الحياة؟.. ان الاقاصيص تتباين بشأن نهـاية كينيراس . فهنالك من قال انه قتل نفسه عندما اكتشف انه ضاجع ابنته، وزعم آخرون انه غلب على

امره في مسابقة موسيقية مع ابولو فأمر الظافر بموته . غير انــه ، والحق يقال ، لم يمت في عنفوان الشباب، اذا كان عمره عند موته ، حسب رواية « انا كريون » ، مئة وستين سنة. واذا لم يكن بد من ان نختار احدى القصتين ، فلعل موته موتاً عنيفاً اكثر احتمالاً من بلوغه ذلك العمر الكبير — وان لم يبلغ عمر الذين عاشوا قبــل الطوفان . ان حياة مشاهير الرجال في الازمنة الغابرة مطاطة جداً يمكن ان تطوّل وتقصّر لمنفعة التــاريخ ، كما يشاء للمؤرخ ذوقه وهواه .

الفصل الرابع

رجال ونساء مقدسون

١ ـ نظرية اخرى

راينا في الفصل السابق انه كان في جميع انحاء آسيا الغربية نظام للبغاء المقدس ، وان هذا النظام كان في فينيقيا وقبرص مقرونـاً بعبادة ادونيس بوجه خاص . ولكن لما وجدت ان تفسيري لهذه العادة لم يحظ بقبول بعض الكتاب الذين لهم من الآراء ما هو اهل للاحترام ، بل انهم آثروا تاويلاً آخر ، فساخصص هـذا الفصل لدرس الموضوع من جديد ، وساحاول ان اوسـع دائرة البحث وادقق النظر اكثر من قبل ، لكي اجمع من الادلة ما يكفي لزيادة الايضاح عن العادة وعلاقتها بعبادة ادونيس . ولكن يجدر بنا في البدء ان نمتحن النظرية الاخرى التي قدمها البعض لتعليـل الحقائق المعروفة .

فقد افترض البعض ان البغاء الديني في آسيا الغربية يرجع الى عادة شعبية احتياطية ، وهي فض بكارة العروس قبل تسليمها الى زوجها « لكي يكون نـكاح العريس سليماً من اذى يخشاه الناس كثيراً في طور معين من اطوار النمو في حياتهم . »

وفيما يلي بعض الاعتراضات على هذا الراي :

(١)ـ لاتعلل هذه النظرية طابع التدين العميق الذي تتصف به

هذه العادات المتبعة في جميع انحاء آسيا الغربية في العصور الغابرة .
وهذا الطابع الديني يظهر في ممارسة العادة في هيا كل آلهة عظمى
ووقف اجور البغاء عليها ، واعتقاد النساء بانهن يكتسبن عطفها
بتسليم اجسامهن ، وامر اله ذكر للناس بان يخدموه على هذا النحو .

(٢)—لا تعلل هذه النظرية بغاء النساء المتزوجات في هيليو بوليس (بعلبك)، وكما يظهر ايضاً في بابل وبيبلوس، وذلك لان المؤرخين الذين نعتمد عليهما بمعرفتنا هنا ، وهما هيرودوتس ولوقيان ، اذ يصفان هذه العادة في البلدين الاخيرين ، يذكران النساء لا العذارى. ويقول حوزيا ان صبايا اليهود المتزوجات ، كن يزنين في الهيا كل المشيدة على قمم التلال ، في ظلال اشجار السنديان والحور، ولا يذكر هذا النبي ان العذارى يشتركن في حفلات الفجور هذه . ومن المحتمل انهن كن يشتركن فيها ، غير ان لهجته لا تدل على ذلك ، فهو انما نقول : « بناتكم » و« كنائنكم» . ولا يمكن تعليل هذا البغاء حسب النظرية التي انتقدها هنـا ، غير انه من الصعب فصله عن بغاء العذارى الذي كان شائعا — على الاقـل في بعض الاماكن — جنباً الى جنب مع بغاء المتزوجات .

(٣)—ولا تعلل هذه النظرية البغاء المحترف والمكرر الذي كان شائعاً في ليديا وبنطس وارمينيا ، وكما يبدو ايضاً في جميع انحاء فلسطين . غير ان هذا البغاء المنتظم بدوره لا يمكن فصله عن اول زنا في حياة المرأة . والا فهل يجوز لنا ان نؤول اول عمل فاحش بطريقة ، وكل الاعمال التالية بطريقة اخرى ؟..ونقول ان العمل الاول شعبية محض ، وان الاعمال التالية دينية محض ؟..

(٤) — ولا تعلل هذه النظرية وجود « القدشيم » (الرجال المقدسين) جنباً الى جنب مع « القدشوت » (النساء المقدسات) في الهياكل. لانه مهما كانت مهمة هؤلاء « الرجال المقدسين » فلا بد انها مماثلة لمهمة « النساء المقدسات » ويجب ان تؤول بنفس الطريقة.

(٥) — حسب هذه النظرية التي امتحنها هنا يجب ان نرى ان الرجل الذين يفض بكارة العذراء يدفع له اجر مقابل خدمته الخطرة (وهو بالفعل يدفع له اجر في الاماكن التي تنتشر فيها العادة التي تفترضها النظرية). اما في آسيا الغربية فالامر بالعكس: فالرجل ينقد المرأة، لا المرأة الرجل، بل ان الاجر كان حسناً جداً، فكانت الفتيات في ليديا وقبرص يكسبن لانفسهن بائنة على هذا الغرار. وهذا يدل دلالة واضحة على ان المرأة هي التي تعتبر مقدمة للخدمة لا الرجل. ايجوز لنا ان نقول ان الرجل يدفع نقد مقابل الخدمة الخطرة التي يقوم بها ؟..

ان هذه الاعتبارات تبرهن برهاناً قاطعاً على انه مهما كان الاصل العريق في القدم الذي نبتت منه هذه العادات في آسيا الغربية، فلا يمكن ان يكون الدافع الى الاحتفاظ بها ما تفترضه النظرية المشار اليها. وفي اثناء الفترة التي ندرسها نجد ان كل المظاهر تدل على ان هذه العادات دينية محض، ولذلك فلا بد من ايجاد دافع ديني لها. وهذا الدافع هو ما تقدمه نظريتي التي اظن انها تعلل جميع الحقائق المعروفة.

ولكن انصافاً للكتاب الذين انتقدت آراءهم، اود ان اقول ايضاً ان العادة التي يحاولون ان ينسبوا اليها البغاء المقدس لم تكن

دائماً شعبية فحسب . وذلك ان الوسيط كثيراً ما كان كاهناً ، كما ان تضحية البكارة كانت تجري في بعض الاماكن – كما في روما ، وبعض انحاء الهند – امام تمثال إله ذكر مباشرة ، ومعنى هذه العادات ما زال غامضاً ، ولا يحسن بنا في حالة جهلنا الراهنة ان نبني عليها استنتاجات قاطعة . فمن الممكن ان ما يبدو كعادة شعبية احتياطية ان هو الا شكل منحط للطقوس الدينية . ومن الناحية الاخرى ليس بالبعيد ان الطقس الديني يرجع في اصله الى تهيئة فيزيولوجية للزواج ، كما هو مالوف عند متوحشي استراليا .

بيد انه وان استطعنا ان نتثبت من الاصل التاريخي ؛ لن يعلل ذلك الدوافع التي حدت بشعوب آسيا الغربية في الازمنة القديمة الى ممارسة العادات الموصوفة في هذا الكتاب . والعادة الموازية لها في الحقيقة هي البغاء المقدس الذي ما زالت تقوم به في يومنا هذا نساء مكرسات في الهند وافريقيا . ولعل دراسة هذه العادات المعاصرة تلقي شيئاً من النور على العادات القديمة .

٢ – النساء المقدسات في الهند

في الهند تدعى الراقصات المكرسات للخدمة في الهياكل «التاميلية» «ديفاداسي» ، اي « خدم او جواري الآلهة » ، غير انهن في حديث الناس يدعين زانيات . ولكل هيكل «تاميلي» مشهور في جنوب الهند جماعة من هؤلاء النساء المقدسات . ومهمتهن الرسمية هي الرقص مرتين في اليوم ، صباحاً ومساء ، في الهيكل ، وتهوية المعبود باذناب الجواميس التيبتية ، والرقص والغناء بين يديه حين يحمل في المواكب ، وحمل النور المقدس المدعو « كمبارتي » . وهناك نقوش

تشير الى انه في سنة ١٠٠٤ ب.م. كان هيكل الملك «راجا جارا» في طنجور اربعمئة من «نساء الهيكل» كن يقطن مجاناً في المنازل المبنية في الشوارع المحيطة به ، ولهن من اوقـــاف الهيكل اراضٍ معفاة من الضرائب . وكن يتلقن الرقص والغناء منذ الصغر .

وكثيراً ما تنذر الامهات الحوامل ، املاً في ان يضعن بسلام ، ان يوقفن المولود على الهيكل اذا كان بنتاً ، لتتكرس لخدمة الله . ومن عرف الحياكين في «بتروكالي كندرام» – وهي بلدة صغيرة من اعمال مدراس – ان يكرسوا اكبر بنت في العائلة للهيكل . والبنات الموقوفات على الهيكل يزوجن رسمياً ، ويكون الزوج احياناً صنم المعبود ، واحياناً سيفاً . وهذا يدل على انهن يعتبرن في اكثر الاحيان – وان لم يكن دائماً – زوجات للاله .

ومن عادات طبقة « السكايكولان » ، وهي طبقة كبيرة من الحياكين التاميليين المنتشرين في جميع انحاء الهند الجنوبية ، ان كل عائلة يجب ان تكرس على الاقل فتاة واحدة منها لخدمة الهيكل . والمراسيم المتبعة في حفلة تدشين هؤلاء الفتيات في « كويمياتور» مثلاً تتضمن «شكلاً من اشكال حفلة العرس . فيدعى الاقرباء في اليوم السعيد ويربط خال الفتاة او من يمثله ، رباطاً ذهبياً حول جبينها ، ثم يحملها بين يديه ويجلسها على لوح خشبي امام المدعوين . فيقوم كاهن براهمي بانشاد التراتيل (المدعوة «مانترام») ويهيء النار المقدسة (حومام) . وتهدي ام الفتاة الخال قطعاً جديدة من القماش ثم يدعي الكاهن البراهمي – لانه يلي الاله اهمية ويمثله بين الناس – الى الدخول على الفتاة . ويقال انه عندما يضاجعها الرجل بوضع

بقربها سيف ، ولو لدقائق معدودة ». وعندما تقضي احدى هؤلاء الراقصات نحبها ، يسجى جسمهـــا بقماش قشيب يؤخذ من صنم المعبود ، وتغطى بزهور تؤخذ من الهيكل الذي تنتمي اليه . ولا تتلى الصلاة في الهيكل الى ان يتم تجنيزها ، لأن المعبود ، وهو يُعد زوجها ، يعتبر رسمياً في حالة من النجاسة يشترك فيها كل النائحين، وهذه تعيقه عن الخدمة الدينية .

اما في «ماهراتا» فتدعى المكرسة «مُرلي» ويعتقد سواد الشعب بان ظل الاله يقع عليها بين الفينة والفينة ويدخل فيهـــا . وعندها تترنح المرأة وتهتز بعنف ، ويستشيرها الناس كعرافة ، ويضعون النقود عند قدميها، ويتخذون كلمات الحكمة او الجنون التي تتساقط من شفتيها ككلام منزل .

ولا تقتصر مهنة البغاء في الهيكل على الفتيات فقط . ففي «تولافا» - مقـــاطعة في جنوب الهند - يحق لأي امرأة من نساء الطبقات الاربع العليا ، اذا سئمت زوجها ، او لم تستطع الزواج ثانية بعد ان ترملت فسئمت حياة العفة ، ان تاجا الى الهيكل وتأكل من الارز المقدم للمعبود . وحينئذ ، اذا كانت براهمية ، يحق لهـا ان تسكن في الهيكل او خارجه ، كما يحلو لها . اما اذا قررت السكنى فيه ، فانها تحصل على مقدار من الارز كل يوم، وعليها ان تكنس الهيكل وتهز المروحة امـــام المعبود ، وتقتصر بغرامها عـــلى البراهميين ...

وفيما يلي وصف لتكريس الراقصات او «خادمـــات الله » في « ترافنكور » واهمية هذا الوصف هي في اظهار فكرة الزواج بالاله

بوضوح ، مع تجاهل ناحية البغاء :

(ان مغزى زواج «الديفاداسي» في شكله الاصلي هو هجر الحياة العائلية المألوفة والتكرس لخدمة الله . لقد كانت الراقصة في عصور الروحانيـــة الهندوكية الاولى لا تقل شأنا عن الممرضة في المستشفى، او الراهبة في الدير . وهناك من الظواهر في حفلة العرس التكريسي ما يدل على ماض ليس فيه عيب ولا شين . والعرف يقضي بان تكون الفتاة المنوّى تكريسها بين السادسة والثامنة من العمر ، وعريسها هو الاله الذي يرأس الهيكل المحلي . وتقام الحفلة في منزله، ويصرف قسم من النفقات من امواله . ويقوم بالترتيبات الضرورية ذوو الوظائف العليا في الهيكل فتأتي الفتاة الى الهيكل وقد استحمت ومعها قطعتان من القماش واشياء اخرى ، يضعها الكاهن عند قدمي الصنم ، وتجلس الفتاة ووجهها نحو تمثال الاله . حينئذ يشعل الكاهن النار المقدسة ويقوم بطقوس خاصة بهـــذا الاحتفال . ثم يدشن العروس ، ويقدم بالنيابة عن عريسها الالهي احدى قطعتي القماش اللتين احضرتها معها، ويربط قطعة من «الطالي» حول عنقها . وتنص العادة على ان تؤخذ الفتاة بعد ذلك الى دارها حيث تقام احتفالات العرس مدة اربعة ايام ، ويقوم مقام العريس في اثناء هذا الكاهن نفسه . ومنذ ذلك الحين تصبح الفتـــاة زوجة الاله ، اي انها تكرس بقية حياتها لخدمته بنفس الاخلاص الذي تظهره الزوجة لزوجها حين يعقد عليها القران المقدس ... وعليهـا ان تصوم كلما اقتضت ذلك اعياد الهيكل ، كصوم الايام السبعة في عيد «ابامارغام» ، وتؤمر في اثناء هـــذا الصوم بملازمة العفة

التامة ، وعليها الا تتناول الا وجبة واحدة من الطعام في اليوم وذلك داخل الهيكل ...)

٣ - الرجال والنساء المقدسون في غرب افريقيا

والعادات الجارية في غرب افريقيا تقدم لنا امثلة اخرى لعلها افضل من السابقة لتوضيح غرضنا :

(... فالعادة عند الشعوب الناطقة بالـ « يو » في «ساحل الرقيق » هي ان يضاف الى الكهنة ، كهنة جدد عن طريقين هما : انضمام الصغار وتكريس البالغين من الرشد . ويطلق على الكاهنة كلمة «فودوسي» اي زوجة الاله . ومهمتها الاولى هي البغاء ، وفي كل بلدة معهد واحد على الاقل لانضمام اجمل الفتيات البالغات من العمر من العاشرة الى الاثنتي عشرة ، حيث يبقين لثلاث سنوات ويتعلمن الترتيل والرقص الخاصين بعبادة الآلهة ، ويضاجعن الكهنة وتلاميذهم ، وعند انتهاء مدة التعليم يصبحن زانيات للجميع . ولا يجد احد في ذلك ملامة ، اذ يعتبرن متزوجات من الاله ، ويعد انغماسهن في الفجور ارشاداً منه . وكان يجب ان يحصرن خلاعتهن ضمن جدران الهيكل ، ولكنهن في الواقع لا يفرقن بين متعبد وغيره . وما يرزقن من اولاد يكونون ملكا للاله .) ولا يسمح لهؤلاء النسوة بالزواج لانهن يعتبرن زوجات للاله .

وفي هذا القسم من افريقيا ايضاً نظام خاص لزوجات «داينه غبي» اي الاله الافعوان ، وكاهناته وزانيات هيكله . فهن عادة يقمن سوية في مجموعة من البيوت او الاكواخ يحيط بها سياج ،

ويقضين هناك مــــدة التعليم وهي ثلاث سنوات . واكثر الاعضاء الجديدات من الفتيات الصغيرات ، غير ان كل امرأة ، متزوجة ام عازبة ، حرة او عبدة ، تستطيع ان تنضم الى سلك الـكاهنات هذا ، وتقيم في منازلهن ، بشرط ان تتظاهر امام الناس بان روح الاله قد حلت فيها ، فتتفوه بالصيحات والصرخات التي يعترف الشعب بانها تدل على حلول روح الاله . والمرأة التي تنضم الى الـسلك على هذا النحو تصبح معصومة عن التعدي ، ويحظر عليها في اثناء مدة التعليم دخول دار ابيها اذا كانت عزباء ، او دخول دار زوجهـــا اذا كانت متزوجة . وهـــذه العصمة تفسح للنساء مجـالاً لخيانة ازواجهن ، غير انها احياناً تنقذ العبدة المضطهدة من ظلم سيدها ، او الزوجة المهملة من قسوة رجلها : فما عليها الا ان تصرخ الصرخات المعروفة لكي يعترف الناس بحلول الاله فيها ، وبذا تضمن لهـــا ملجأ من ظالمهـــا . » والاله الافعوان يتزوج هؤلاء النسوة سراً في هيكله ، وينسبن نسلهن اليـــه . ولكن الكهنة هم الذين يضاجعونهن .

ومن المهم ، توضيحاً لغرضنا ، ان نلحظ العلاقـــة المتينة التي يفترضها هؤلاء بين خصب التربـــة وزواج النساء من الامغوان . فان الوقت الذي يبحثون فيه عن عرائس للاله الزحاف هو الفصل الذي تبدأ فيه الذرة بالظهور . حينئذ تمسك الـكاهنات القديمات بالعصي ويركضن في الشوارع ويصرخن كالمجنونات ويختطفن الفتيات الصغيرات ، اللواتي بين الثامنة والثانية عشرة من العمر ممن يجدنهن خارج المنازل ، ليجعلن منهن عرائس للافعوان . وكثيراً مـــا

يضع الاتقياء في هذه المناسبة بناتهن على عتبة الباب لكي يتشرفوا بتكريس بناتهم لخدمة الاله . ولعلهم يعتقدون ان زواج الافعوان بالنساء ضروري ، لكي يستطيع القيام بواجبه الخطير ، وهو انماء الزرع، وتكثير الماشية ،(لانهم يتضرعون الى الثعبان عـــادة في الفصول التي يشتد فيها المطر او القحط ، او بشأن حفظ مواشيهم ورعايتها ، وبالاختصار : في الملمات والضائقات حين لا يلجأون الى آلهتهم الجديدة .)

وقد زار الرحالة الهولندي«بوسمان» ملك « وهيده » في فصل جدب فوجده يتميز من الغضب . وشرح للملك سبب غضبه قائلاً : (انه ارسل في تلك السنة تقدمات لدار الثعبان اكثر من ذي قبل آملاً في الحصول على غلة طيبة ، ولكن احد وكلائه عاد يطلب اليه ثانية باسم الكهنة ان يرسل تقدمات اخرى . فاجابه بانه لن يقدم شيئاً آخر هذه السنة ، وان الثعبان اذا لم ينعم عليهم بحصاد وفير ، فليدعهم وشأنهم والسلام).ثم اردف يقول: (لن يستطيع ان يلحق بي ضرراً اكثر ، فقـــد تعفن الجزء الاكبر من قمحي في الحقول .)

وعند زنوج «ساحل الرقيق» ،كما رأينا ، رجال مكرسون ونساء مكرسات ،كهنة وكاهنات ، والعادات والمعتقدات بين الذكور والاناث متشابهة . فالرجال كالنساء يقضون ثلاث سنوات في التلمذة على كل منهم في نهايتها ان يبرهن عـــلى ان الاله يقبله ويعتبره جديراً بالالهام . فيذهب مرفوقاً بنفر من الكهنة الى احد المعابد ويجلس على مقعد للاله . فيمسح الكهنة رأسه بمزيج مـــا

ـ له عندهم صفة القداسة ـ ويضرعون الى الاله معاً بصراخ هائج طويــــل . فاذا كان الشاب مقبولاً لدى الاله فانه في اثناء الغناء يرتجف بشدة ويتظاهر بهزات قوية ، ويزبد فمــــه ، ويرقص بعنف جنوني ساعة او يزيد . وهذا برهان على حلول الاله فيه . وبعـــد ذلك عليه ان يمكث في هيكل ما دون ان يكلم احداً ، لسبعة ايام وليالٍ . وفي نهاية المدة يؤخذ الى الخارج ، ويفتح كاهن فاه مشيراً بذلك الى ان له ان يستعمل لسانه ، ويعطى اسماً جديداً ، ويرسم رسامة كاملة . وفي تلك اللحظة يعد كاهناً للاله الذي يخدمه ووسيطاً له ، والكلمات التي يفوه بها وهو في تلك الحالة من الهياج والفورة العقلية، تعتبر وحياً الهياً بل كلمات الاله بعينها ينطق بهـــا بشفتي انسان . واذا ارتكب الكاهن جريمـــة وهو في هذه الحالة الجنونية لم يعاقب عليها ، وذلك لانها تعد عملاً من الاله . غير ان هذه الحصانة الكهنوتية اسيء استعمالها كثيراً، فاضطر الملك «غيزو» الى تغيير العادة : فاصبح المجرم الملهم في مأمن من العقاب ما دامت الروح حالة فيه ، غير ان يد القصاص تنتظره حالما تغادره الروح الالهية . ومع ذلك فان شخص الكاهن او الكاهنة على وجـــه الاجمال مقدس ، ولا يؤذن لعلماني بايذائه او اهانته : ليس ذلك فحسب ، بل عليه ان يحذر حتى من الاصطدام به صدفـة ، او يحتك به في الطريق . ويصف الاب « بوش » كيف انه رأى في احدى زياراته لزعيم قبيلة « اغوه » احدى نساء الزعيم تجرها الى المنزل اربع كاهنات، وقد تلوث وجهها بالدم ،وكست آثار السياط جسمها . فقد كانت قد ضربت بالسياط ضرباً وحشياً، لانها داست

عن غير عمد على قدم احد هؤلاء الكهان . ولم يكتفِ الزعيم بأنه لم يجرؤ على التعبيرِ عن غضبه، بل اضطر إلى اعطاء الكاهنات زجاجة من شراب الرم في سبيل المصالحة ! » .

وعند القبائل الناطقة بلغة « تشي » في ساحـــل الذهب ، وهم يجاورون غرباً القبائل الناطقة بال « يو » في ساحل الرقيق ، عادات مماثلة من حيث الرجال والنساء المكرسون . ويستشير الناس هؤلاء الكهنة عندما تحل بهم الروح بين الحين والحين، وذلك عندما يهيّجون انفسهم بالرقص وموسيقى الطبول : ولكل اله ترتيلته الخاصـــة وينشدونها بضربة طبل خاصة ، ويرفقونها برقصة خاصة . وبينما هم هكذا يرقصون رجالاً او نساء ، والطبول تدق، يسقطون كلمات الوحي من افواههم بصوت كالنعيق وحشرجة حلقية يظن سامعوها انها صوت الاله . ولهذا فان للرقص مكاناً مهماً في تربية الكهان والكاهنات، ويتدربون عليه اشهراً كثيرة قبل ان يقوموا بالرقص امام الناس . ويستشيرهم الشعب بكل امور معيشتهم ويدفعون لهم مقابل ذلك اجوراً حسنة ... « والكاهنات عادة مستهترات في الفجور ، ويؤذن لهن ان يشفين غليل شهواتهن مع اي عابر سبيل يلقى هوى من نفوسهن . »

٤ — النساء المقدسات في آسيا الغربية

وهكذا نجد ان البغايا المقدسات في الهياكل في افريقيا، واحياناً، وان لم يكن دائماً ، في الهند، يعتبرون زوجات للاله ، ويُغفر لهن الاسراف في الشهوة بحجة انهن لسن انفسهن لانهن إنما يفعلن ذلك بفعل الوحي الالهي . وهذا في صفوته هو التأويل الذي قدمتـــه

لعادة البغاء المقدس، كما كانت تمارسها شعوب آسيا الغربية في الازمنة الغابرة . فقد كانت النساء، سواء اكن عذارى، ام متزوجات ، ام زانيات محترفات ، في فجورهن في الهيا كل انما يقلدن المسلك الفاجر الذي تسلكه إلهة عظيمة للخصاب لضمان اثمـــار الحقول والشجر ، والانسان والحيوان . ولعل الناس كانوا يعتقدون ان النساء اذ يقمن بهذه المهمة المقدسة الخطيرة تحل فيهن روح الالهة ، كأخواتهن في غربي افريقيا ، وهذا الغرض على الاقل يعلل الحقائق المعروفة كلها بشكل طبيعي بسيط ، وحين نفترض ان النساء كن يستطعن ان يتزوجن من الآلهة فنحن إنما نفترض مبـــدأ نعرف بالتأكيد انـــه كان مقراً في بابل وآشور ومصر . ففي بابل كانت احـــدى النساء تنام عـلى الدوام في سرير «بعل» او «مردوخ» وهو سرير فخم كان قائماً في هيكله على قمة هرم مرتفع ، وكان المعتقد أن الاله اصطفاها من بين نساء بابل كلهن وضاجعها في سريره . ولكن ، بعكس زوجات الآلهة في الهند وغربي افريقيا ، يقول هيرودوتس ان زوجة الاله البابلي هذه كانت عفيفة . الا اننا نشك في ذلك . فزوجات بعل او عشيقاته ربما كن زوجات مردوخ او تابعاته اللواتي تذكرهن شرائع حمورابي : ونعرف من هـذه الشرائع ان تابعات الآلهة قد يكن امهات متزوجات من رجال . وكان للاله الشمس «شاماش» في بابل كما لمردوخ زوجات بشريات يُكرسن رسمياً لخدمته ، وقد يكون لهن اولاد . والملاحظ ان اسم الواحدة من هؤلاء للتابعات البابليات هو «قاديشتو»، وهي نفس التسمية العبرية «قديشا» اي «المرأة المكرمة» التي كانت تطلق على

زانية الهيكل . وصحيح ان القانون كان صارماً في عقاب كل من تسول له نفسه بالحط من قدر هؤلاء النساء المقدسات ، بيد ان ما نعرفه عن بغايا غربي افريقيا يحذرنا من ان نظن ان الاحـــترام الرسمي ، ولو فرض بالعقاب الصارم ، دليل على العفاف والفضيلة .

وفي مصر كانت امرأة تنام في هيكل عمون في طيبة ، وكان المعتقد ان الاله يزورها . والنصوص المصرية القديمة كثيراً ما تشير اليها باسم « القرينة الآلهية » ، ويظهر انهـا كانت في الزمن القديم ملكة مصر نفسهـــا . غير ان قرائن عمون او جواريه في زمن « سترابون » (١) — في اوائل العصر الميـــلادي — كن فتيات جميلات من اسر نبيلة ، يلزمن وظائفهن الى ان يراهقن . وفي اثناء ذلك كن يضاجعن بحرية تامة اي رجل يروق لهن . وبعد المراهقة كن يتزوجن ، وكانت تقام لهن طقوس الحداد كأنهن قد متن . واذا ما متن فعلًا وضعت اجسادهن في قبور خاصة .

٥ — الرجال المقدسون في آسيا الغربية

كما ان للنساء المكرسات في غربي افريقيا ما يقابلهن من الرجال المكرسين ، كذلك كان في آسيا الغربية : ففيهـــا كان الرجال المقدسون (قد شيم) يوازون النساء المقدسات (قدشوت) . وبعبارة اخرى كان العبيد المقدسون في الهيكل متممين للاماء المقدسات فيه. ولما كانت الصفة البارزة التي تسم المكرّسين في غربي افريقيا هي ،

---

(١) هو الجغرافي المشهور الذي عاصر أغسطس قيصر . وقد كتب كتابه «الجغرافيا» باللغة الاغريقية، وفيه الكثير عن مصر ، وفصل عن البلاد العربية. (المترجم)

حسب ادعائهم ، حلول الروح فيهم او وحيهم من الاله ، فلنا ان نخمن انها كانت صفة العبيد المقدسين في آسيا الغربية ايضاً : فلعلهم هم ايضاً كانوا يعتبرون ممثلين للاله – مؤقتين او دائمين – تحل فيهم من آن لآخر روحه الآلهية ، ويعملون باسمه ، وينطقون بصوته .

ومهما يكن من امر ، فاننا نعلم ان هذا ينطبق على معبد القمر القديم عند الالبانيين في القفقاس . فقد كان لهذا المعبد اوقاف شاسعة يسكنها العبيد المقدسون ، ويحكم المعبد كاهن اكبر له المنزلة الثانية في البلاد بعد الملك . وكانت الروح تحل في كثير من هؤلاء العبيد فيتنبأون . فاذا دام احدهم في هذه الحال من الفورة الالهية وراح يطوف لوحده في الغابات ، امر الكاهن الاكبر باخذه وربطه بسلسلة مقدسة . ويحفظ كذلك في راحة وترف سنة كاملة . وبعد ذلك يقاد المسكين ويمشح بالزيوت ، ويقدم ضحية مع آخرين غيره للقمر . وكانت طريقه التضحيـة هكذا : يمسك رجل بحربة مقدسة ويطعن بها جنب التضحية الى ان تبلغ قلبه . فاذا ما ترنح وسقط ارضاً ، راقبه المشاهدون عن كثب واستخلصوا من كيفية سقوطه الآيات وعلامات المستقبل . ثم يجر جسدة او يحمل الى مكان معين ، وهناك يطأ عليه اصحابه باقدامهم تطهراً .

والواضح في هذه العادة ان النبي كان يظن ان به مساً من القمر ، اي ان إله القمر يوحيه او يحل فيه : ويظهر ان الالبانيين كالفريجيين كانوا يعتقدون ان إله القمر ذكر ، لان خادمه والناطق بلسانه رجل لا امرأة ، ولهذا فليس بالبعيد ابداً ان

الرجال المقدسين في معابد آسيا الغربية الاخرى كانوا يقومون بمهام نبوية مماثلة وان لم يشاركوا النبي الالباني في نهايته المؤلمة اذا مسه القمر ، ولم يقتصر اثر هؤلاء الانبياء الآسيويين على آسيا وحدها . فان الذي اشعل شرارة حرب العبيد في صقلية لم يكن الا عبداً سورياً ، تظاهر بالنشوة النبوية لكي يثير اخوانه العبيد للقتال باسم الآلهة السورية ، ولكي يزيد كلماته الملتهبة ضراماً ، نفث فيها هذا النبي الحاذق ناراً حقيقية ودخاناً ، وذلك بخدعة لاعب السيمياء !..

وكان يعتقد العبرانيون ان انبياءهم ايضاً تمسهم روح إلهية وتوحيهم وتنطق بافواههم ، كما يعتقد زنوج افريقيا الغربية ان الاله يتكلم بفم كهانه ورجاله المكرسين . بل ان اوجه الشبه بين انبياء اسرائيل وغربي افريقيا قريبة وغريبة . فقد كان الانبياء العبرانيون ، كاخوانهم السود، يستخدمون الموسيقى لاثارة النشوة النبوية ، ومثلهم يستقبلون الروح الآلهية عن طريق وضع زيت مقدس على رؤوسهم ، ومثلهم يتميزون عن عامة الشعب بعلامات فارقة على وجوههم، ومثلهم ايضاً كانوا يستشارون لا في النكبات الاهلية الكبرى فحسب ، بل في امور الحياة العادية ، اذ كان ينتظر منهم ان يدلوا بمعلوماتهم ونصائحهم لقاء اجر صغير . فمثلاً استشار احدهم صموئيل عن حميره المفقودة كما يستشار عراف الزولو عن بقرات مفقودة . وقد رأينا كيف قام اليشاع بدور عراف الماء عندما عز الماء على قومه . ونحن في الحقيقة نعرف ان اسم النبي القديم كان « الرائي » ، والكلمة تدل على ان مهمته الخاصة هي

العرافة لا النبوة ، بمعنى التكهن بالمستقبل . وعلى كل، فلم يكن هذا الضرب من النبوة قاصراً على الاسرائيليين وحدهم ، بل انه مظهر شائع في جميع انحاء العالم . ففي كافة الاصقاع والازمان اعتقد الناس ان الكلمات المتدفقة التي يفوه بها رجال ونساء في فورة جامحة، إنما هي نطق إله حل فيهم . ولكن الذي يميز النبوة العبرانية عن غيرها هي ان عبقرية جماعة من هؤلاء الرجال رفعت هذا السلاح القوي من ايدي الرعاع ، وسلطته على الرذيلة في سبيل الاخلاق الرفيعة ، وبهذا قدمت للانسانية خدمة جلى . هذا في الواقع ما يحق للاسرائيليين ان يعتزوا به ، غير اننا في دراستنا هذه لسنا بصدد هذه الناحية من نواحي النبوة .

وأقرب من هذا الى غرضنا هو ان نلحظ ان النبوة التي هي من الضرب الشائع كانت موجودة في بيبلوس ، مدينة ادونيس المقدسة ، وذلك قبل اقدم الانبياء العبرانيين الذين وصلت الينا كتاباتهم بقرون كثيرة .

فلما كان الرحالة المصري « ون عمون » ما زال مقيماً في ميناء بيبلوس وقد امره الملك بمغادرة المكان ، حلت روح الله على احد الوصيفين في القصر واصابته فورة النبوة ، فقال ان على الملك ان يستقبل الغريب المصري كرسول من لدن الاله عمون . فربما كان الاله الذي حل في الوصيف ونطق بفمه ادونيس إله المدينة. وليس لدينا ما نعرفه عن هؤلاء الوصيفين الملكيين ، غير انهم ، اذا كانوا يخدمون ملكاً مقدساً، وتحل فيهم روح الوحي، لا بد مقدسون، بل لعلهم كانوا ينتمون الى طبقة العبيد المقدسين او « القدشيم » .

فاذا كان الامر كذلك ، ثبت الاستنتاج الذي هدفنا اليه ببحثنا هذا ، وهو انه لم يكن هناك حد فاصل بين الانبياء و « القدشيم » فكلا الفريقين هم « رجال الله » كما كان الانبياء يدعون . وبعبارة اخرى ، كانوا الوسطاء الملهمين والرجال الذين يظهر الاله نفسه فيهم من حين لآخر بالكلام والافعال . انهم كانوا تجسداً مؤقتاً للاله . ولكن بينما كان الانبياء يتجولون احراراً في البلاد ، يبدو ان « القدشيم » كانوا يرتبطون بالهيكل . وكان من بين واجباتهم في المعابد ما اثار الاشمئزاز في انفس بعض الذين كانوا على خلق اسمى . ويمكننا ان نستنتج هذه الواجبات من مسلك ابناء « ايلي » نحو النساء اللواتي جئن الى خيمة تابوت العهد ، ومن معتقدات وعادات « الاولياء » التي ما زالت قائمة حتى اليوم عند القرويين السوريين (١) .

فقد كتب الذين رأوا هؤلاء « الاولياء » يقولون : (انهم اذا لم يكونوا دجالين فهم نفر من الناس فقدوا رشادهم ، ويسميهم السوريون بالمجانين – اي من مسهم الجن او حل فيهم . وهم يتسكعون في خرق قذرة ، او بدون ثياب . ولما كانوا يعتبرون منتشين بروح الله ، فان صفوة القوم من مسلمين وغيرهم يحجمون عن توبيخهم عندما يتفوهون بافحش الكلام ، ولا تتحاشى النساء الجاهلات اقترابهم منهن ، اذ باعتقادهن ان الله يوحيهم ، ينسبن اليهم خرافياً سلطة إلهية لا تقوى امرأة على مقاومتها . قد يكون

---

(١) يجب ان نذكر ان هذا الكتاب نشر لاول مرة سنة ١٩٠٠ ، والعهد العثماني في سوريا في اواخره . (المترجم)

هذا الانصياع شاذاً عن المألوف ، غير ان وجوده بالفعل ليس مجرد إشاعة . ويختلف هؤلاء « الأولياء » عن الدراويش العاديين الذين يرام المسافرون بكثرة في القاهرة ، كما يختلفون ايضاً عن المجاذيب العاديين الذين يكبدون بالسلاسل ، لئلا يؤذوا انفسهم او غيرهم . غير ان مظهرهم وما يقال عنهم يهيئان بعض الامثلة التي توضح رأي الناس قديماً في الرائي او النبي في زمن حوزيا : (النبي ابله ، ومن تحل فيه الروح مجنون) . (وكان من يجعل من نفسه نبياً في زمن إرميا يعتبر كالمجنون) . واتماماً للمقارنة نجد ان هؤلاء المتشردين (يعتقد الناس بان لهم قوة التنبؤ ، فيستطيعون ان يتكهنوا بالمستقبل ، ويحذروا قومهم من الأخطار المحيقة بهم .)

ويجوز لنا ان نظن ان الدافع القوي الذي يحدو بالنساء الى الاستسلام الى « الاولياء » هو الامل في الحصول على النسل منهم. فلا يزال المعتقد شائعـاً في سوريا ان القديسين الاموات انفسهم يقدرون على تحبيل النساء العواقر ، فتذهب هؤلاء الى المعابد املاً في الحصول على مشتهى قلوبهن . فمثلاً ، في « حمامات سليمان » في شمالي فلسطين تنطلق من الارض تيارات حارة من الهواء ، ويدعى احدها « أبو رباح » ، وهو مشهور لكثرة ما تقبل عليـه النساء العواقر اللائي يشتهين الاولاد ، فيجعلن الهواء الحـار يهب على اجسامهن ، ويعتقدن ان ما يلدن من اولاد بعد ذلك هم من صلب القديسين او ولي المعبد . غير ان اشهر القديسين بهذا الصـدد هو القديس جورج (أو مار جريس ، او الخضر) . فهو يكشف عن نفسه احياناً في معابده الكثيرة المبثوثة في طول البلاد وعرضها .

وفي كل منها ضريح او ما يشبه الضريح . وأشهر هـــذه الكنائس كنيسة قرب قلعة الحصن في شمال سوريا ، تفد اليها النساء العواقر من كل الطوائف بما في ذلك المسلمات . (ولكن من الاهالي من يهزون اكتافهم زراية حين يذكر هذا المعبد وعلاقته بالنساء . ولكن لا ريب في أن اكثر الناس لا يعرفون ما السر في هـــذه الظاهرة ، ويظنون ان اقوى قديس في العالم هو الذي يهب النساء الاولاد . غـــير ان البعض بدأ يدرك حقيقة هـــذه الظاهرة ، وجعل كثير من المسلمين يمنعون نساءهم عن زيارة المعبد .)

٦ ـ اولاد الله

إن مثل هذه العادات قد يعلل الاعتقاد الذي لم يكن مقصوراً على سوريا بان الرجال والنساء قد يكونون فعلاً ، لا مجازاً ، ابناء إله ما، وبناته . لأن قديسي اليوم ، مسيحيين كانوا ام مسلمين ، الذين تنسب اليهم ابوة اولاد الامهات السوريات ، ان هم إلا الآلهة القديمة وراء قناع رقيق من التخفي. فاذا لجأت نساءالساميين في القديم كما يلجأن اليوم الى المعابد لكي يتخلصن من وصمة العقر — وصلاة حنة ام النبي صموئيل مثل معروف على ذلك — يسهل علينا فهم الاساطير القائلة بأن ابناء الله تزاوجوا مع بنات الناس ، فرزقن منهم اولاداً . كما اننا نفهم سبب استعمال الناس اسماء عبرية هي في الحقيقة ألقاب إلهية ، وهي اسماء رائجة جداً . وذلك ان عشرات الاولاد والبنات الذين كانت امهاتهم قد لجأن الى الاماكن المقدسة من اجل الحصول على النسل ، كانوا يعتبرون اولاد الاله بالفعل ، فتطلق عليهم اسماء تدل على ذلك . ولهذا دعت حنة طفلها

« صموئيل » ومعناه « اسم الله »، او « اسمه الله » ، ولعلها آمنت حقاً بانها حبلت بابنها من إلاله . فكان تكريس ابنـــاء كهؤلاء لخدمة الله في الهيكل، هو بمثابة ارجاع الابن الالهي للأب الالهي . ومثل هـــذا تماماً في غربي افريقيا ، اذا حبلت امرأة في معبد اغباميا ، وهو الاله الوحيد الذي يمنح النساء نسلاً ، كرست المولود عبداً مقدساً للاله .

اذن فان المعتقدات والعادات السورية اليوم قد تشير الى البغاء الديني الذي كان متبعاً في تلك الاصقاع نفسها في الزمن الغابر .. فكانت النساء حينئذ كاليوم يتضرعن الى الاله المحـــلي ، بعل او ادونيس سابقاً ، ابو رباح او مار جريس اليوم ، لكي يهبهن مـا يشتهيه قلب كل امرأة . وكان يلعب دور الاله المحلي سابقاً كاليوم رجـــال مقدسون كانوا اذ يمثلون الاله يعتقدون عن ايمان بانهم مساقون بالوحي الالهي . وبان المهمة التي يقومون بهـــا ضرورية لخصب الارض وتكاثر الانسان . وقد حصرت النصرانية والاسلام بأثرهما القوي المطهر ، عادات كهذه ضمن حدود ضيقة جداً، فـــلا يستطيع احد اتباعهـــا اليوم ، حتى تحت الحكم العثماني ، الا في الاحجار والزوايا الخفية . ولكن وان تكد العادة تضمحل ، فان المبدأ الذي ترتكز عليه لم يتغير : وما المبدأ الا رغبة الجنس البشري في البقاء ، والاعتقاد بأن غرضاً مشروعاً طبيعياً كهذا يمكن للقوة الآلهية ان تحققه باظهار نفسها في اجسام الرجال والنساء .

ولم يقتصر الاعتقاد بابوة الله الجسدية في الازمنة القديمـــة او المعاصرة على سوريا ، ففي بلدان اخرى كثيرة كان هنـــاك من

الرجال من يعتبرون ابناء الله بالمعنى الحرفي، اعتقاداً منهم بان روح الاله حلت في رحوم امهاتهم . وسأوضح هـذا المعتقد ببضعة امثلة فقط مستقات من الكتابات الاغريقية واللاتينية !..

كانت النساء اللواتي يبغين نسلاً يذهبن الى معبد « ايسكولا بيوس » (١) الكبير، القائم في واد جميل في المرتفعات العليا، يوصل اليه بفج يبدأ بخليج « ابيدروس » ويعرج صعداً في احشاء هوة ملأى بالآجام، الى ان يبلغ المعبد . فكن ينمن هنا فيأتيهن في الحلم ثعبان، واذا حبلن اعتقدن ان ذلك من الثعبان . ومما لا ريب فيه هو ان الثعبان كان يعتقد بانه هـو الاله بعينه، لان ايسكولا بيوس ظهر مرات كثيرة بشكل ثعبان، وكانت الافاعي تحفظ وتطعم في معابده لشفاء المرضى اذ تعد جسداً للاله !.. ولهذا فمن المنتظر ان تنسب ابوة الاولاد الذين يولدون للنساء اللواتي زرن معبد ايسكولابيوس الى الاله الثعبان . وقد رفع كثير من مشاهير الايام الغابرة الى المصاف السماوية باساطير عزت اليهم ميلاداً عجيباً من هذا النوع . فمن المؤكد ان اهل «سيكيون» كانوا يعتقدون ان « اراتوس السيكيوني » المشهور هو ابن ايسكو لابيوس، اذ قيل ان امه حبلت به لمضاجعتها ثعباناً .

فلعلها نامت اما في معبد ايسكو لابيوس في سيكيون، حيث كان تمثال صغير يمثلها وهي جالسة على افعى، او في معبده في

(١) الاله الاسطوري للطب عند الاغريق . وقد قالوا ان قدرته على شفاء الامراض وبعث الموتى اثار حفيظة زفس، اذ خشي هـذا انه سيجعل البشر جميعهم خالدين، فصرعه بصاعقة . ورمز ايسكولابيوس الثعبان . (المترجم)

« تيتاني » الذي كان في عزلة اصعب منالاً من المعبد الآخر ، وان لم يبعد عنه سوى عدة اميال . وهناك كان الثعبان المقدس يزحف بين اشجار السرو على قمة التلة المشرفة على وادي نهر « اسوبوس » وهو شعب ضيق كثير الخضرة ، والنهر الابيض الثائر يندفـــع في اعماقه . فلعل أم آراتوس حبلت بمنقذ بلاده (او تخيلت انها حبلت به) في ظلال السرو هناك، وهدير النهر البعيد يملأ اذنيها. وكذلك قيل ان ام اغسطس قيصر حبلت به بمضاجعتها ثعبانـــاً في هيكل ابولو ، ولذلك كان يعتبر الامبراطور ابن ذلك الاله . وقيلت اقاصيص مثل هذه عن ارسطومينيس بطل مسينا ، والاسكندر الكبير ، وسكيبيو الاكبر : فقد قيل عنهم جميعاً ان آباءهم كانوا افاعي ، وكتب « أبليان » يقول ان في زمن هيرودس ضاجـــع افعوان عذراء في بلد يهوذا : اولا يمكن ان تكون هذه اشاعـــة مشوهة عن نسب السيد المسيح ؟!.

٧ – تقمص الموتى

قد نجد السبب في اعتقاد القوم بان الثعابين اباء لبعض الناس في الايمان الشائع بان الاموات يعودون الى الحياة ويزورون مساكنهم القديمة بشكل الافاعي .

وهذا الايمان منتشر جداً في افريقيا ولا سيما بين القبائل المنسوبة الى اصل « بانتو » ، كقبائل الزولو والثونغا وغيرها من قبائـــل « كفر » في جنوب افريقيا ، وقبائل « نغوني » في افريقيا الوسطى البريطانية، (وعدد كبير من القبائل الافريقية الاخرى في طول القارة وعرضها) ، كما هو موجود ايضاً بين قبائل جزيرة مدغشقر.

ويعتقد اقوام « الايبان » في بورنيو بان الروح الحارسة لكل انسان (توا) (تظهر للعيان بشكل افعى او لبؤة ، او حيوان آخر من حيوانات الادغال . وهي تعتبر روح احد الاسلاف الذين اشتهروا بالشجاعـــة او الفضيلة ، اتخذت عند موته لنفسها شكلاً حيوانياً . فمن عادات « الايبان » عندما يموت احد وجهاء القبيلة الا يدفن جسده ، بل يوضع على الارض في مكان منعزل في تلة مجاورة ، ويؤخذ كل يوم مقدار من الطعام الى ذلك المكان ، فاذا اختفى الجسد بعد بضعة ايام اعتقد الناس بانـــه اصبح « توا » او روحاً حارسة . وكثيراً ما يلجأ ذوو الآلام المزمنة الى ضريـــح كهذا ومعهم تقدمة لروح الميت طلباً لمعونته . فيرون في احلامهم الحيوان الذي اتخذته الروح الكريمة شكلاً لها . واكثر هـــذه الاشكال شيوعاً هو شكل الثعبان . فاذا ما رأى احدهم ثعباناً لم يقتله او يطرده الا فيما ندر ، بل انـــه يقدم طعاماً ، لانه روح حارسة جاءت تسأل عن حال محروسيها لتكون لهم فألا حسناً . واذا وجد شيء في فم الثعبان يؤخذ ويحفظ كرقية) .

وفي جزيرة « كيري وينا »، شرقي غيانا الجديدة (يعتبر السكان الثعبان كأحد زعمائهم السالفين او بالاحرى كمسكن لروحه ، فاذا رؤي ثعبان في منزل قالوا ان الزعيم جاء يزور منزله القديم . غير انهم يتشاءمون من ذلك ويحاولون ان يغروه على الذهاب بأسرع ما يمكن . وتقدم له آيات الاحترام التي تقدم للزعيم : فيمرون به واجسامهم منحنية ، ويحيونه كزعيم ذي مرتبة سامية . ويقدمون له الهدايا مراضاة له ويرفقونها بالتضرع اليه لكي لا يلحق بهم الاذى،

فيسرع في رحيله . ولا يجرؤن على قتل الافعى لان قتلها – كما يعتقدون – يعود على قاتليها بالمرض والموت) !..

وحينما ينظر الى الثعابين كأسلاف عادوا الى الحياة ، يعاملهم الناس بالطبع باحترام زائد، وكثيراً ما يطعمونها الحليب–ولعل ذلك لان الحليب طعام الاطفال ، والثعبان يعامل كمخلوق انساني هو في طور الجنين فبوسعه ان يولد من امرأة ثانية .

ويبدو ان الرومان والاغريق ايضاً كانوا يؤمنون بأن ارواح الموتى تتقمص في الافاعي . فكان الثعبان رمز الروح الحارسة لكل انسان عند الرومان ، فكانت الثعابين تؤوى وتطعم باعداد غفيرة ، ولو لم تأت على اكثرها النيران لما استطاعت ان تعيش معاً . وفي الاساطير الاغريقية ان قدموس وزوجته هارمونيا تحولا عند الموت الى ثعابين.وعندما قتل ملك اسبارطة كليومينيس وصلب في مصر ، التفت افعى رهيبة حول رأسه على الصليب وابعدت الغربان والصقور عن وجهه . وكذلك عندما كان بلوطينوس على فراش الموت ، زحفت افعى خارجة من تحت سريره واختفت في جحر في الحائط ، وفي تلك اللحظة اسلم الفيلسوف الروح . فالظاهر ان الخرفات كانت تحدو بالناس الى الاعتقاد بان هذه الافاعي هي ارواح الموتى . ومن المؤكد ان الافعى في الدين الاغريقي كانت دائماً رمز الموتى المبجلين ، فلا ريب اذن ان الاغريق الاوائل كقبائل افريقيا اليوم، كانوا يظنون ان ارواح من غادروا هذه الدنيا تسكن في الافاعي .

وكان في هيكل « إربكثيوم » في آثينا ثعبان مقدس تقدم

اليه اقراص العسل مرة في كل شهر : ولعله كان في معتقد النـــاس يحتوي على روح الملك « إربكثيوس » الذي كان قبل وفاته يحكم البلاد من نفس ذلك المكان . ولربما كان الاغريق يستهدفون من تقدمات الحليب التي يصبونها على القبور سقي الثعابين لانها تمثـــل الموتى . فقد وجد على لوحتي قبر في « تيغيا » صورة رجل وامرأة يحمل كلاهما كأساً يقدمها لافعى ، والمظنون ان الكأس تحتوي على حليب . ومن الممكن ان الصورة الشائعة في الفن الاغريقي، والتي تمثل امرأة تسقي ثعباناً من صحن صغير مأخوذة عن عـادة إطعام ارواح الموتى الراحلين .

وفضلاً عن هذا فقد كان من دأب النساء في مواسم بذر الارض في «تسموفوريا» في اكتوبر ان يرمين اقراص الكعك وقطع اللحم الى الثعابين التي تقطن الكهوف المقدسة الموقوفة على إلهة القمـــح « ديميتر » (١) . ونظن ان الغرض من ذلك كان مراضاة الافاعي التي تقمصت ارواح من مات من الرجـــال والنساء ، اذ ستقض مضجعها في الارض عمليات الفلاحة حـــين تبدأ . واي شيء اكثر إقلاقاً للراحة من ثيران تجر المحراث ذهاباً واياباً فوق مساكنها الضيقة ، فتهزها وتمزقها فوق رؤوسها ؟.. فلا عجب اذا سعى الناس في تسكين غضبها بالهدايا .

غير ان الفلاح كان احياناً يقض بفلاحته مضجع إلهة الارض ،

---

(١) اخت زفس ، والهة الزراعة والحياة المدنية . وقد فسر اسمها بانـــه اما (١) « ام الحبوب » او (٢) « ام الارض » او بالاحرى « الارض الام » . راجع الحاشية عن برسيفوني (ص ٧٧ مخطوط). (المترجم)

لا ارواح الموتى . وقد حذر نبي من انبياء الهنود الحمر اتباعه الكثيرين عند اواسط نهر كولومبيا من حرث الارض قائلاً : (اليس حراماً ان نجرح امنا جميعاً او نشقها او نمزقها او نخدشها بعملياتنا الزراعية؟..) (انك تطلب إلي ان احرث الارض.أآخذ سكيناً وأشق صدر امي ؟!. انك تطلب إلي ان احفر واستخرج الحجارة . أأحفر تحت جلد امي واستخرج عظامها ؟!. انك تطلب إلي ان اقطع الحشيش واجفف التبن وابيعه لاصبح غنياً كالرجال البيض ؟.. ولكن انى لي ان اجرؤ على قص شعر امي ؟..)

وكان الاغريق يظنون ان النساء قد يحبلن من الاله الافعوان. ولعل هذا الظن دليل على إيمانهم بان النساء قد يحبلن من الاموات بشكل الافاعي . فاذا كان الامر كذلك فمن الطبيعي ان تلجأ العاقرات الى القبور لكي يرزقن الجنين، وهذا قد يعلل سبب زيارتهن لمعبد الاله الثعبان « ايسكيلابيوس » لهذا الغرض، ولعل المعبد كان في الاصل ضريحاً . ومما يدعو الى التأمل هو ان معابد مار جريس في سوريا التي تثوب اليها العاقرات تحوي دائماً ضريحاً او ما هو اشبه بالضريح ، وكذلك تظن القرويات السوريات حتى في يومنا هذا ان النساء قد يلدن الاولاد بدون مضاجعة الاحياء ، وذلك من زوج قد مات ، او قديس متوفي او جنّيّ . وفي جزائر الهند الشرقية ما زال القوم يعتقدون ان الارواح تستطيع ان تجامع النساء وتجعلهن حاملات !..

ان معتقدات كهذه تقارب جداً الفكرة السائدة بين الكثير من الاقوام والتي مفادها انه يمكن لارواح الموتى ان تدخل

رحوم النساء فتولد من جديد كأطفال . فكان من دأب اقوام « المورون » من الهنود الحمر ان تدفن الاطفال قرب الطرقــات املاً في ان تدخل ارواحهم في النساء العــابرات فيولدوا ثانية . وكذلك يلقي بعض الزنوج في غرب افريقيا باجساد الاطفال بين الشجيرات الكثيفة لكي تستطيع ارواحهم ان تنتخب امهــات جديدات من النساء المارات بهم . وعند قبائل الكونغو الاسفل (يدفن الرضيع دائماً قرب بيت امه، لا بين الشجيرات ، ظناً منهم بان الطفل اذا لم يدفن قرب بيت امه ، فان النحس يصيبها ولا تلد اولاداً بعد ذلك) !..وربما كان مغزى ذلك ان الطفل الميت، اذ يدفن قرب منزل امه سيدخل رحمها ويولد من جديد ، لان هـذه الاقوام تؤمن بتقمص ارواح الموتى . فهم يقولون : (ان الشيء الجديد الوحيد في الطفل هو جسده . اما الروح فقديمة ، كانت في السابق لرجل قضى نحبه ، او انها روح رجل ما زال حياً .) فاذا شبه الطفل امه مثلاً او اباه او عمه ، ظنوا ان له روح القريب الذي يشبهه ، ولذلك فلا بد للذي قد اخذت منه روحه على هـذا النحو ان يموت عاجلاً. وعند « البانغالا » ، وهم من آكلة لحوم البشر الذين يسكنون افريقيا الاستوائية شمالي الكونغو ، رؤيت مرة امرأة تحفر حفرة في الطريق العامة ، وراح زوجها يرجو ضابطاً بلجيكيا ان يدعها وشأنها ، ووعده بأن يصلح الطريق فيما بعد ، قائلاً ان زوجته تبغي ان تغدو اماً . فاجابه الضابط اللطيف الى طلبــه ، وجعل يرقب المرأة ، واذا هي تستمر في الحفر الى ان استخرجت هيكلاً عظمياً صغيراً ، وهو ما تبقى من ابنها البكر ، واخــذت

تعانقه بحنان ، وتتوسل اليه بضراعة ان يدخل فيها وينعم عليهـا بطفل حي . اما الضابط فلم يبتسم لذلك ، وكان محقاً !

ثم انه كما تتخذ الوسائل التي تسهل ولادة الارواح الخيرة ثانية، تؤخذ الاحتياطات لمنع عودة الارواح الشريرة الى الولادة . فقد كتب احدهم يقول عن قبائل « باغندا » في اواسط افريقيا : (ان الجيل المعاصر يعرف سبب الحبل ، غير ان الاسلاف في الماضي لم يتأكدوا قط من السبب الحقيقي ، فكانوا يظنون ان الحبل ممكن دون مضاجعة الذكر . ولهذا كانوا يتخذون الاحتياطات كلما مروا بمكان احرق فيه جسد رجل انتحر ، او دفن فيه طفل ولد بان نزلت قدماه قبل رأسه . فكانت النساء يأخذن الحذر بالقاء الحشائش او العيدان على مكان كذاك ، ظناً منهن بان ذلك يمنع شبح الميت الدخول فيهن والولادة من جديد . ولم يكن هـذا الخوف من الحبل بالاشباح مقصوراً على المتزوجات ، بل كانت النساء جميعهن يشتركن فيه ، صغيرات وكبيرات ، متزوجـات وعازبات ، وكلهن يلجأن الى الطريقة عينها في تجنبه . وفضلاً عن ذلك فان نساء باغندا كن يتصورن ان بالامكان ان يحملن ،بدون مساعدة الجنس الآخر ، لا من هذه الاشباح المزعجة فحسب ، بل من زهرة الموز ايضاً : فاذا سقط نور الموز الارجواني على ظهر امرأة او كتفيها صدفة وهي دائبة في عملها في ظل احدى الشجر، كان ذلك كافياً في معتقدهم لان يجعل الجنين يتحرك في احشائها . واذا اتهمت امرأة بالزنى لانها انجبت ولداً ، لا يمكن ان يكون زوجها قد سبب حبلها به ، فما عليها إلا ان تقول ان اباه هو زهر

الموز فتبرأ ساحتها . ويظهر ان السبب في عزو هذه الصفة العجيبة الى نوار الموز هو اولاً ، اعتقاد القوم بان ارواح السلف تسكن احراش الموز ، وثانياً ، دفنهم موتى الاطفال عند جذور الشجر. أفليس طبيعياً اذن ان تكمن روح في كل زهرة ، فتسقط بمهارة فائقة في شكل النور على ظهر المرأة وتستقر اخيراً في رحمها ؟..

وفي شمال الهند، كلما مات طفل دفن عادة تحت عتبة الباب (لاعتقاد الناس بان روحه ستولد ثانية في العائلة ، لان والديه يطآن قبره كل يوم . وهذا يفسر قاعدة الهندوكيين التي تنص على دفن الاطفال عوضاً عن حرقهم . فأرواحهم لا تتلاشى في الاثير مع دخان المحرقة ، بل تبقى على الارض لكي تتقمص في افراد العائلة من جديد.) وهناك اعتقاد في بعض الاماكن بان الطفل اذا مات وهو رضيع، واسقطت امه حليبها على الارض يومين اوثلاثة ، تعود روح الطفل لتولد ثانية . فلهذا السبب يمزج الحليب بالماء في وعاء خزفي ، ويقدم الى روح الرضيع لثلاث ليال متوالية. وفي مقاطعتي « امبالا » و« غجرات» يعتقد الشعب بانه اذا حفرت الكلاب وبنات آوى قبر الطفل واخرجت جسده واتت به قريباً من المدينة او القرية ، فمعنى ذلك ان الطفل سيعود الى امه ، اما اذا ابتعدت به عن المدينة او القرية ، فمعنى ذلك ان الروح ستتجدد في عائلة اخرى . ولهذا ترى الام تخرج باكراً في صباح اليوم الثاني بعد موت رضيعها لكي ترى اذا كانت الكلاب قد اقتربت بجسده من القرية. وعندما يحمل الطفل الى المقبرة تقطع الام جزءاً من ثوبه وتحتفظ به املاً في ان تغري الروح على العودة اليها . والنساء العاقرات ، او اولئك اللواتي فقدن اولادهن

في طور الرضاعة ، يقتطعن قسماً من ثوب طفل ميت ويخطنه على ثيابهن ، اذ يعتقدن انهن بذلك يغرين الطفل على العودة اليهن بدلاً من امه . ومن اجل هذا يتخذ الناس الحذر لئلا يفقدوا ثياب من يموت من اطفالهم ، ويدفن البعض هـــذه الثياب في منازلهم .) وتشتمل سجلات الجرائم في الهند على قضايا كثيرة (يجري فيها قتل طفل ذكر حسب طقوس معينة شفاء للعقر ، والنظرية في ذلك تقول ان الطفل المقتول يتجسد في المرأة التي تقوم بهذا الطقس رغبة في النسل . والمرأة عادة تحصل على اتحادها بروح الطفل باستحمامها فوق جسده ، او بالماء الذي غسلت فيه الجثة . وقد وقعت حوادث مؤخراً استحمت فيها المرأة بدم الطفل فعلاً) !..

ومن عادات « الغند » ان يقوموا بطقوس استرجاع روح المرء بعد موته بايام خمسة : فيذهبون الى ضفة النهر وينادون باسمه ، ثم يقفزون في الماء ويخرجون وقد امسكوا بحشرة او سمكة، وتؤخذ هذه الى البيت وتوضع بين موتى العائلة المقدسين ، وهم يعتقدون ان روح الميت بذلك عادت الى اهله . وفي بعض الاحيان تأكل المرأة هذه الحشرة او السمكة ظناً منها بانها ستلدها طفلاً !.. والعادة الاخيرة تشرح القصص الواسعة الانتشار عن العذارى اللواتي حملن لانهن اكلن من نبتة او حيوان ، او احتضن النبتة او الحيوان ، ولنا ان نحسب ان في مثل هذه الحالات يعتبر الحيوان او النبات حاوياً لروح انسان ميت . فتنزل الروح الى احشاء العذراء وتولد طفلاً من جديد . وعند الصقالبة الجنوبيين كثيراً ما تلجأ العاقرات الى قبر دفنت فيه امرأة حامل ، فيقضمن بعض الحشيش النابت على

القبر ، ويدعين الميتة باسمها متضرعات اليها ان تمنحن ثمرة احشائها . وبعد ذلك يأخذن شيئاً من تراب القبر ويحملنه دائماً تحت المنطقة .

والظاهر انهن يتصورن ان الجنين الذي لم يولد موجود في الحشائش او التراب ، وبذلك ينتقل الى اجسامهن .

وعند قبائل « كاي » في غيانا الجديدة – ويبدو هذا عجيباً – ما زالت بعض النساء هنا وهناك لا يؤمن مطلقاً بان هناك علاقة بين المجامعة والحبل . والكثيرون بالطبع يفهمون هذه العلاقة ، غير ان جهل البعض بها ربما كان مبنياً على معرفتهم بان من المتزوجات من لا تلد اولاداً لسنين عديدة او طول ايام حياتها .) وفي بعض جزائر « ملانيزيا الجنوبية » يبدو ان السكان يعتقدون بان المجامعة ليست ضرورية للحبل ، وان المرأة قد تحبل بدخول روح حيوان ، او روح فاكهة في رحمها ، بدون مساعدة الرجل . وفي جزيرة « موتا » (هذا ما يحدث : قد تجد امرأة وهي جالسة في الحديقة او في الغابة او على الشاطىء حيوناً او فاكهة في قطعة القماش التي تكسو حقويها ، فتلتقطه وتحمله الى القرية وتستفسر معنى ظهوره . فيقول الناس انها ستلد طفلًا له خواص ذلك الحيوان ، بل قد يكون هو نفسه ذلك الحيوان . فتعود المرأة به الى حيث وجدته وهناك تضعه في المكان الذي ينتمي اليه : فاذا كان برياً وضعته على الارض واذا كان مائياً وضعته في جدول او بركة لعله كان قد خرج منها . وتبتني حوله جداراً ، وتذهب كل يوم لزيارته واطعامه . وبعد زمن ما يختفي الحيوان ، فيقول الناس انه اختفي لانه دخل في المرأة . وقد كان جلياً انهم لم يعتقدوا بأن الحيوان

قام بمجامعة المرأة جسدياً ، كما انهم لم يقولوا ان شيئاً آخر دخل في رحم المرأة بشكل ذلك الحيوان : كل ما في الامر ، كما يبدو ، هو انهم يعدون الحيوان الذي يوجد على هذا النحو خارقاً للطبيعة، كأنه حيوان روحي لا مادي . وقد قالت امرأة عجوز ما زالت حية ترزق في « موتا » ، ان امرأة وجدت حيواناً في قماش حقويها فحملته بعناية في كفيها المضمومتين الى القرية ، غير انها عندما فتحت كفيها لكي تراه جماعتها ، كان الحيوان قد اختفى . فظن الجميع انه دخل في المرأة وهي في طريقها من الغابة الى القرية. وعندما يولد الطفل يعتبر نوعاً ما بانه الحيوان او الفاكهة التي وجدتها الأم واعتنت بها . ولذلك لا يجوز للطفل ان يأكل من ذلك الحيوان او تلك الفاكهة طيلة حياته ، واذا فعل فقد يمرض مرضاً خطيراً ، وقد يموت ... ولما سألتهم عن مغزى ذلك قالوا ان المرء الذي يأكل الحيوان يكون قد اكل نفسه .)

وفي اكثر انحاء استراليا، ولا سيا في الوسط والشمال والغرب، تعتقد القبائل المتوحشة ان اختلاط الجنسين ليس ضرورياً للتناسل، بل ان الكثير منهم يتنكر ان المجامعة هي السبب المباشر في الحبل. ومن المعتقدات الشائعة بين القبائل التي تجوب فيافي اوستراليا الوسطى وقفارها ، ان كل انسان هو تقمص روح من ارواح السلف ، وان ارواح الموتى تلج مباشرة رحوم النساء فيلدن دون ان يضاجعن الرجال . ويظنون ان انفس الراحلين تجتمع وتسكن سوية في اماكن معينة تشير اليها معالم طبيعية كشجرة او صخرة مثلاً ، وانها تنطلق من مكامنها هذه وتستقر في اجسام

النساء او الفتيات العابرات ، فاذا ما تحرك الجنين في احشاء امرأة، قالت ان روحاً قد شقت طريقها اليها من اقرب مكان لأنفس الموتى . وهذا هو تعليلهم دائماً للحبل والولادة .

(ان افراد هذه القبائل برمتها يؤمنون بان الطفل ان هو الا نتيجة مباشرة لدخول روح من ارواح السلف في الأم . ولا يفكرون قط في ان التناسل مقرون بالجماع الجنسي ، ويعتقدون جزماً بان الولادة ممكنة بدونه .)

والامكنة التي تجتمع فيها الانفس في انتظار ولادة ثانية هي عادة تلك التي يقولون ان منها يدخل اسلاف زمن الاحلام الارض ، اي انها الأمكنة التي يظن ان الآباء والاجداد قد ماتوا او دفنوا فيها . فمثلاً : يقول افراد قبيلة « وارامنغا » ان الجد الاكبر لأسرة « الثعبان الأسود » قد خلّف كثيراً من ارواح اطفال الثعبان الاسود في الصخور والاشجار التي تحف بأحد الحواجز الصخرية . ولهذا لا تجرؤ امرأة منهم على ضرب شجرة منها بفأس ، لئلا تنطلق اثر الضربة احدى ارواح الاطفال وتدخل فيها . وهم يتصورون ان الروح لا تكبر حبة الرمل الواحدة ، وانها تدخل في المرأة عن طريق السرة ، ثم تنمو في احشائها .

وفي اماكن كثيرة من اراضي قبيلة « ارنتا » هناك حجارة يعتقد انها مساكن الارواح التي تترقب الولادة من جديد ، ولذلك تدعى « حجارة الاطفال » . وفي احدها ثقب تتطلع منه ارواح الاطفال الى النساء العابرات ، ويعتقد الناس اعتقاداً

راسخاً بان زيارة هذا الحجر تسبب الحمل . فاذا اضطرت امرأة الى المرور به وهي لا ترغب في ولادة طفل ، اخفت شبابها بحذر ، مقطبة وجهها ومتعثرة في مشيتها ومتوكئة على عصا . ثم تنحني كالعجوز وتقلد صوت من بلغت ارذل العمر وتقول :(لا تقترب مني ، اني عجوز شمطاء .) بل انهم يعتقدون ان هذا الحجر قد يسبب الحمل دون ان تزوره المرأة . فاذا اراد كلا الرجل وزوجته ولداً ، ربط الرجل عقال رأسه حول الحجر واخذ يحك به ويتمتم، مرشداً الأنفس ان تجيب الى طلب زوجته. ويعتقدون ايضاً ان بمثل هــذا العمل يستطيع رجل شرير ان يسبب الحبل للنساء بل وللاطفال من بعيد .

ولا يقر سكان نهر « تلي » في « كوينزلند » بان المجامعة هي سبب حبل النساء ، مع انهم يعترفون بانها سبب الحبل عند الحيوانات ، ويتفاخرون بسموهم على الوحوش بان بقاءهم على وجه الارض ليس مديناً بشيء الى وسائل دنيئة كهذه .فالاسباب الحقيقية لحبل المرأة في رأيهم اربعة : اولاً ، قد تتناول المرأة ضرباً معيناً من السمك الاسود من رجل يسميه الاوربيون بالأب لجهلهم ، ولربما شوت هذه السمكة وجلست الى النار تنتشق رائحة السمكة المشوية الشهية ، ويكفي ذلك لأن يجعلها اماً عن قريب . ثانياً ، قد تخرج متعمدة في طلب نوع خاص من الضفدع، فاذا نجحت في الامساك به كان ذلك ايضاً كافياً لتعليل حبلها . ثالثاً ، قد يأمرها رجل ما بالحبل ، ومجرد ذلك يكفي لأن يحرك الجنين في احشائها . ورابعاً واخيراً ، قد تحلم بان الطفل قد وضع

فيها ، ويكفي الحلم لأن يحقق نفسه . فمهما قال النـــاس البيض عن الموضوع ، هذه هي اسباب ولادة الاطفال عند زنوج نهر تلي !..

ويعتقد السكان في « رأس بُـدفرد » في كوينزلند بان الاطفال إنما توسلهم ارواح لها شعر طويل ، وعينان من الامام ، وعينان من الخلف ، وتقيم في الأحراش الكثيفة . ويصنع الاطفال في الغرب البعيـد حيث تستقر الشمس في المساء ، ويصنعون كاملي النمو لا بشكل اطفال ، غير انهم في اثنـــاء رحلتهم من ارض الغروب الى رحوم النساء يتحولون الى عصافير اذا كانوا اناثاً ، او الى افاع جميلة اذا كانوا ذكوراً . فاذا سمع صوت هذه العصافير ليلًا ارهف الزنوج سمعهم وقالوا : (لا بد طفل آتٍ الى هـــذه الأماكن !..) واذا خرجت امرأة تبحث عن الطعام في احد الأحراش ورأت افعى جميلة – ومـــا تلك الا ولد يبحث عن ام له – نادت اترابها ، فجئن راكضات ورحن يقلّبن الحجـــارة والأوراق والاحطاب باحثات عن الافعى ، فاذا لم يجدنها ادركن انها دخلت في المرأة ، ولا بد لهـــا عما قريب من ان تلد ولداً ذكراً .

وفي نهر « ينغاذر » في كوينزلند ، يرعى واضع الاطفـال في النساء « انجي – آ ». يأخذ هـــذا كتلة من الطين من مستنقعات الآجام ، ويكونها في شكل طفل ويولجها في رحم امرأة . ولست تستطيع ان تراه لأنه يقطن اعماق الغابات بين الصخور وعلى ضفاف لمستنقعات ، ولكن في وسعك ان تسمعه غارقاً في الضحك لوحده احياناً ، فاذا سمعته فاعلم انه قد اعد طفلًا لاحدى النساء .

ويعتبر اقوام مقاطعة « كيرنز » في كوينزلند الشمالية ، قبول المرأة للطعام من يد رجل لا زواجاً فحسب ، بل السبب الحقيقي للحبل !..

وكذلك لا تعد الاقوام الاسترالية الشمالية الحبل كنتيجة مباشرة للمضاجعة . وتقول العجائز ان هناك روحاً شريرة تخرج الاطفال من نار مندلعة وتضعهم في رحوم النساء فيلدنهم . وفي الحياة العادية يخرج الرجل للصيد وجمع الطعام فيقدم لزوجته مما يصيد او يحصل عليه من طعام فتأكله معتقدة بان ذلك سيبعثها على الحبل والولادة . فاذا ولد الطفل عليه الا يأكل من الطعام الذي سبب الحبل به الى ان تظهر اسنانه الاولى .

وهكذا نرى ان جهلاً صبيانياً بطريقة التناسل الفزيولوجية ما زال منتشراً الى حد ما بين بعض الاقوام البشرية المتأخرة . ولذلك تلجأ هذه الاقوام في تعليلها الى تخيلات تكاد الا تقنع الاطفال . فلنا اذن ان نحسب ان جهلاً كهذا كان في الازمنة السالفة اكثر انتشاراً عما هو الآن،بل انه من المحتمل انالانسان، في العصور الطويلة التي سبقت خروجه من طور الهمجية ، لم يعرف قط سبب الولادة الحقيقي ، وانه لذلك جعل يختلق التعليلات والنظريات لتفسير هذا السر الغامض ، كتلك التي ما زالت سائدة بين الاجناس البربرية او المتوحشة في اواسط افريقيا ، وميلانيزيا واستراليا . ان شيئاً من التأمل في ظروف الحياة الهمجية كاف لاقناعنا بان جهلاً كهذا ليس عجيباً بالقدر الذي يتصوره المرء المتمدن لأول وهلة ؛ او بعبارة اخرى ، ليس السبب الحقيقي

لولادة الاطفال شيئاً ظاهراً جداً كما قد نظن . فالعادة الشائعة بين الأقوام المتوحشة – والناس اجمع كانوا اصلاً متوحشين – هي ان يعيش الأولاد والبنات سوية دون اي عائق قبل المراهقة ، فيعرفون المضاجعة الجنسية التي لا يمكن ان تتسبب عنها الولادة . اذن ليس عجيباً ان ينكروا واثقين وجود اي علاقة بين المضاجعة والتناسل . ثم ان الفترة الطويلة التي تفصل بين العمل ، وبين اول دلائل الحبل قد تخفي بسهولة عن عين المتوحش غير المدققة العلاقة بين الاثنين . فهذه الاعتبارات قد تزيل أو تنقص تردد المرء المتمدن في اعترافه بان جزءاً كبيراً من جنسه البشري ، بل كله جميعاً ، كان ينكر او يشك في امر يبدو الآن له من حقائق الطبيعة الاولية واشدهـا ظهوراً .

اذن في ضوء ما تقدم من الأدلة والحجج ، فان قصص الابطال والآلهة الذين ولدوا ولادة عجيبة من امهات عذارى تفقد كثيراً من الروعة التي كانت تحيط بهم في الزمن القديم ، وما نراها نحن الا كبقايا خرافية دامت ، كالمتحجرات ، لكي تنبئنا عن عصر غابر ملؤه الجهل الصبياني وسذاجة التصديق .

٨ – الجذوع والحجارة المقدسة عند الساميين

في وسعنا ان نتبين آثار معتقدات وعادات كالتي سبق ذكرها بين الساميين القدماء . فعندمـا يتكلم النبي إرميا عن الاسرائيليين الذين كانوا يقولون للشجرة او جذعها :(انت ابي) وللحجر :(انت ولدتني) ، ربما لم يقل ذلك مجازاً او بلاغـة ، بل قصد ان يندد بمعتقدات حقيقية شاعت بـين معاصريه . ونحن نعلم ان الهياكل

الكنعانية القديمة ، بما فيها هيا كل يهوه حتى زمن الاصلاحات الدينية التي قام بها حزقيا ويوشيا ، كان ما يعبد فيها جذعاً مقدساً، وحجراً مقدساً ، وان هذه الهيا كل كانت مسرحاً لطقوس الفسق يقوم بها رجال مقدسون (قدشيم) ونساء مقدسات (قدشوت). أفليس طبيعياً ان نستنتج ان الجذع والحجر اللذين عدهما الاسرائيليون اباً واماً لهم لاعتقادهم بالخرافات ، هما الجذع المقدس (آشيراه) والحجر المقدس (ماسيباه) اللذان كانا في الهيكل ؟.. وان الاولاد الذين كانوا يولدون نتيجة لفجور الجنسين في هذه الاماكن، كانوا يعتبرون النسل الصادر عن هذين المعبودين الهجيين ؟.. اذ يؤمن عبادهما بانها محط ارواح الموتى الذين يترقبون الحياة من جديد ، كما يعتقد سكان استراليا الوسطى بالحجارة والأشجار المقدسة ؟!. وبموجب هذا الرأي كان ينظر الى الرجال والنساء المقدسين الذين يلدون الأولاد كأنهم تجسد بشري للالهين، فالرجال قد يمثلون الجذع المقدس – ويظهر انه كان عبارة عن شجرة جردت من اغصانها – والنساء يمثلن الحجر المقدس – ويظهر انه كان في شكل مخروط او مسلة او عمود .

ويدعم هذه الاستنتاجات ما اكتشف اخيراً من آثار في « غزر » وهي مدينة كنعانية قديمة ، كانت على مرتفع منعزل على حدود افرايم الجنوبية بين القدس والساحل . فقد عثر المنقبون الانكليز هنا على بقايا هيكل ما زالت الحجارة المقدسة والأعمدة والمسلات (ماسيبوث) قائمة فيه في صف ، وبين اثنين منها حجر كبير مثقوب في الوسط ، جميل الصنع ، لعله كان يحوي الجذع او

العمود المقدس (آشيراه) . وقد وجد في التراب الذي تراكم على ارض الهيكل عدد كبير من تماثيل صغيرة للذكر ، منحوتـــة من حجر كلسي طري ، كما اكتشفت الواح من الطين فيها صور ناتئة للالهة الام غيرها ، في مختلف طبقات التراب المتراكم. ولا شك ان هذه كانت تقدمـــات المتعبدين الى الالهين الذكر والانثى اللذين كان يمثلهما الجذع المقدس والحجارة المقدسة . ووجودهما بكثرة مدهشة يحدو بنا الى الظن بان الهي الهيكل كانا يعتبران فوق كل شيء إلهاً وإلهة للخصاب . ويقوي هذا الظن اكتشاف آخر عجيب . فقـــد وجدت تحت ارض الهيكل عظام اطفال كثيرين ، لا يعدو عمر الواحد منهم اسبوعاً واحداً ، وكلها مدفونة في جرار . ولا تبدو على اي هـذه الاجساد الصغيرة آثار العنف او التشويه : واعتماداً على ما نعرفه من العادات الشائعة بين الاقوام الاخرى ، يجوز لنا ان نحسب ان هؤلاء اطرحتهم امهاتهم ، او انهم ماتوا بعد الولادة بزمن قصير ، وان آباءهم دفنوهم في الهيكل آملين ان ينفـــخ فيهم الاله روح الحياة ، فيعودوا الى رحوم امهاتهم ويولدوا في الحياة من جديد!..واذا اعتقد الناس بان ارواح هؤلاء الاطفال المدفونين حلت في الجذوع والحجارة المقدسة لكي تنطلق منهـــا ، فتدخل اجسام النساء اللواتي يثبن الى الهيكل من اجل ذلك ، اصبح الشبه بينهم وبين اقوام استراليا الوسطى شبهاً تاماً . والشبه الحقيقي لا من صنع الخيال ، والبرهان على ذلك النساء السوريات اليوم اللواتي ما زلن يلجأن الى معابد القديسين للحصول عـــلى النسل ، وينظرن الى « الأولياء » كأن فيهم قبساً إلهيـــاً . ففي هذا ، كما في اي موضع

آخر من مواضع الأيمان بالخرافات ، خير دليل لنا في تفسير الماضي إنما هو الحاضر : فان تتلاش الأشكال العليا للايمان الديني كالسحاب، فان الاشكال السفلى ثابتة لا تتهدم كالصخر . فالرجـال المقدسون في عصر ما ، هم دراويش العصر التـــالي ، وادونيس امس هو مار جريس اليوم .

الفصل الخامس

حرق ملكارث

ان عادة قتل الملك او ابنه بصفته إلهاً ، لم تترك إلا آثاراً طفيفة في قبرص ، لأن حرارة الدين السامي العنيفة لطفتها منذ القدم انسانية الاغريق . غير ان آثار تلك المراسيم المريعة اوضح بكثير في فينيقيا نفسها والمستعمرات الفينيقية التي كانت بعيدة عن طرق التجارة الاغريقية . فنحن نعلم انه كان من دأب الساميين ان يضحوا ببعض اولادهم – عادة البكر منهم – إما كجزية يجب دفعها في فترات منتظمة للاله ، او لتسكين ثائرة غضبه في الأوقات العصيبة والضائقات الوطنية . فاذا كان العوام يفعلون ذلك ، فهل من الممكن ان يعفى الملوك انفسهم، وهم ذوو المسؤوليات الجسام من هذه التضحية المخيفة في سبيل البلاد ؟ ان التاريخ ، في الواقع ، يخبرنا بان الملوك قووا اعصابهم ليفعلوا ما يفعل غيرهم . فجدير بالملاحظة ان « ميشا » ملك موآب ، الذي ضحى ابنه البكر حرقاً ، ادعى بانه ابن لالهه ، فلا ريب اذن ان الوهيته تنتقل الى نسله : اضف الى هذا ، ان التضحية هذه نفسها قيل ان مؤسس بيبلوس الإلهي كان قد قام بها ، وبيبلوس اكبر مدينة لعبادة ادونيس . وهذا يوحي الينا بان الشخص الذي يمثل ادونيس كان يهلك في لهب النار !..

ومهما يكن من امر ، فانه من الظاهر ان عادة حرق اله المدينة الاكبر رمزاً كانت شائعة في « صور » والمستعمرات الصورية حتى زمن متأخر ، ولعل الرمز والتمثال الذي كان يلقى به في اللهب لم يكن إلا بديلًا لرجل كان يحرق في الأصل . فقد اطلق الاغريق على « ملكارث » إله صور الاكبر اسم « هرقل » ، الذي قيل انه حرق نفسه في محرقة هائلة ، فارتفع الى السماء في سحابة مرفوقاً بقصف الرعود . والقصة الاغريقية المألوفة التي خلدها سوفوكليس ، جعلت مشهد المأساة النارية على قمة جبل « أويتا » . غير ان هناك شكلًا آخر للقصة مشهورها في مدينة صور نفسها : وهذا مما يلفت النظر . لأننا اذا قرَنّا القصة الثابتة بدلائل اخرى سأقدمها الآن ، نتوصل الى استنتاج لا يمكن دحضه بسهولة ، وهو ان صورة هرقل او بالاحرى ملكارث ، كانت تحرق بانتظام في احتفال مهيب في صور . ولعل ذلك هو الاحتفال او العيد المعروف باسم « يقظة هرقل » الذي كان يقع في شهر « بريتيوس » الموافق بالتقريب شهر يناير . وتسمية العيد تدل على ان التمثيل الدرامي لموت الاله على المحرقة كان يتلوه تمثيل بعثه من الموت ، وطريقة البعث يمكن معرفتها من قول احد الكتاب الاغريق بان الفينيقيين كانوا يضحون بعصافير السلوى لهرقل ، لأن « تايفون » كان قد صرع هرقل في اثناء رحلته الى ليبيا ، فاعاده « إيولاوس » الى الحياة ، بان وضع تحت انفه سلوى ، فشم الاله الميت العصفور فعادت اليه الروح !.. وتقول قصة اخرى ان إيولاوس حرق سلوى وهي حية ، وعندما اشتم البطل الميت رائحة العصفور المشوي الشهية — وكان يحب

السلوى – عاد الى الحياة . والقصة الاخيرة تشير الى ان الفينيقيين اعتادوا حرق السلوى وهي حية في تضحياتهم لملكارث . فلذلك فان عيد الاله يمكن الاحتفال به في الربيع ، اذ تهاجر عصافير السلوى الى الشمال عبر البحر المتوسط في اعداد غفيرة، يصاد الكثير منها للبيع في السوق ، ثم تعود في شهر آذار آلافاً مؤلفة إلى فلسطين في ليلة واحدة ، حيث تبقى وتفرخ في البطاح والمستنقعات وحقول القمح . وما من شك في ان هناك علاقة متينة بين السلوى وملكارث ، إذ تقول الأساطير ان « استيريا » ام هرقل الصوري (اي ملكارث) تحولت الى سلوى . ولعل القرطاجيين حين كانوا يرسلون السفراء كل سنة إلى صور – مدينتهم الأولى – إنما كانوا يرسلونهم لحضور هذا العيد السنوي لموت ملكارث وبعثه .

وكان في قادس،وهي من أقدم المستعمرات الصورية على ساحل اسبانيا الأطلسي ، معبد قديم لهرقل ذائع الصيت واسع الثراء – اي معبد ملكارث الصوري – بل ان البعض قالوا ان الاله مدفون هناك . ولم يكن في هيكله تمثال او صورة ، بل كانت هناك نار دائمة اللهيب يلقي بالبخور فيها كهنة اقدامهم حافية ورؤوسهم حليقة يلتزمون العفاف . ولا يسمح للنساء او الخنازير بتدنيس المكان بحضورها . وكثيراً ما حج الى هذا المعبد النائي مشاهير الرومان في الأزمنة المتأخرة ، كلما كانوا على وشك القيام بمجازفة تحف بها الأخطار ، ثم عادوا اليه ثانية لتقديم الهدايا بعد ان نالوا ما كانوا يبتغون . ومن آخر ما فعل هانيبال نفسه قبل ان يزحف الى إيطاليا بجيشه ، هو ان ذهب إلى قادس ليصلي إلى

ملكارث – ولكن الاله لم يستجب دعاءه ، وبعد ذلك بفترة وجيزة رأى في نومه حلماً ملؤه الشؤم .

ويظهر انه كان لملكارث في قادس، كما كان في صور، عيد سنوي يصنع فيه تمثال له يحرق في النار ، وان لم تكن له صورة في هيكل قادس. فان رجلاً يدعى «كليون الماغنيسي» يصف كيف أنه عندما زار مدينة قادس اضطر الى الرحيل عن الجزيرة مع حشد كبير من الناس إطاعة لامر من هرقل ، اي ملكارث ، وكيف انهم عند عودتهم رأوا على الشاطىء رجلاً بحرياً هائل الضخامة يشتعل ، وقيل لهم ان الاله قد رماه بصاعقة . فلنا ان نظن اذن ان الغرباء كانوا يلزمون على مغادرة المدينة في عيد ملكارث السنوي فتجري طقوس حرق الاله في اثناء غيابهم . وعلى هذا يكون ما قد رآه كليون ومن معه عند عودتهم إلى قادس ، بقايا ملتهبة لتمثال هائل الحجم يصور ملكارث رجلاً ممتطياً حصان البحر ، كما تصوره نقود مدينة صور . وقد صور الاغريق كذلك إله البحر « مليكرتيس » – وما اسمه إلا تحريف طفيف لملكارث – رجلاً يركب الدلفين او يضطجع على ظهره .

وفي قرطاجة ، وهي اعظم المستعمرات الصورية ، يلوح لنا ان آثار عادة حرق الإله رمزاً أو صورة بقيت ماثلة في قصة «ديدونه» [1]

---

(١) اقرأ قصتها الرائعة في « انيادة » فرجيل ، الكتاب الرابع . وفيما يلي خلاصة ما يعرف عنها : هي ، حسب رواية الاساطير ، مؤسسه قرطاجة ، وهي ابنة احد ملوك صور . قتل اخوها زوجها ففرت الى قبرص ، ومنها الى (بقية الهامش على الصفحة ١٠٣)

او « اليسا » مؤسسة المدينة وملكتها . فقد طعنت نفسها وهي مستلقية على المحرقة، او القت بنفسها من القصر على كوم من الاحطاب الملتهبة تخلصاً من لجاجة عاشق تكرهه ، او يأساً من هجر عاشق آخر قسا عليها . وقد استمر الناس في عبادتهم لديدونه في قرطاجة ما دامت مستقلة . وكان هيكلها في وسط المدينة تظلله آجام الحور. ويمكن التوفيق بين الفكرتين اللتين يبدو فيها التناقض ، وهما كونها ملكة وإلهة ، اذا افترضنا انها كانت كلتيهما في آن معاً ، وان ملكة قرطاجة في العصور الغابرة ، كملكة مصر حتى اوائل الازمنة التاريخية ، كانت تعد إلهية ، وكان عليها كغيرها من البشر المؤلهين ان تموت موتاً عنيفاً إما في نهاية مدة معينه ، او حالما يتطرق الوهن الى قواها العقلية والبدنية . بيد ان هذه العادة القاسية القديمة ربما لطفت في العصور التالية فتحولت إلى تظاهر بالموت ، وذلك بان يستعاض عن الملكة بتمثال لها ، او بجعلها تمر خلال النار دون ان يصيبها الاذى . ويظهر ان تحويراً مماثلاً ادخل على العادة القديمة في « صور » نفسها ، وهي ام قرطاجه . فقد رأينا

(تتمة الهامش الصفحة السابقة)

ساحل افريقيا ، حيث اشترت قطعة ارض من « ارابس » زعيم القبائل هناك . وسرعان ما ازدهرت مدينتها فجاء ارابس يطلب يدها ، وتخلصاً منه احرقت نفسها على كومة المحرقة امام الناس . غير ان الشاعر فرجيل لم يحفل بالدقة التاريخية ، فجعل ديدونه (في « الانياده ») معاصرة لاينياس ، وجعلها تحرق نفسها اسى عليه حين هجرها لكي يذهب الى ايطاليا ويؤسس روما . ويعتقد بعض العلماء اليوم ان معنى « ديدونه » — « المحبوبة » . وقد اعتبرت فيما بعد الهة لقرطاجة . (المترجم)

ما يبرر اعتقادنا بان ملوك مدينة صور ، الذين تنتسب اليهم ديدونه ادعوا بانهم يمثلون شخص الاله ملكارث،وان الاله كان يحرق، اما تمثالاً او بشخص رجل في موسم العيد السنوي . وفي نفس الاصحاح الذي يتهم فيه حزقيال ملك صور بادعاء الالوهية ، يصفه ايضاً بانه يمشي : (ذهاباً واياباً بين حجارة النار).ولا يفهم هذا الوصف إلا اذا قلنا ان الملك الصوري في ما تأخر من العصور عوض عن حرقه بالنار بالمشي ذهاباً واياباً على حجارة حارة ، فانقذ بذلك حياته ، غير مكلف نفسه عناء ، سوى حروق طفيفة في قدميه. ومن الممكن انه عندما تحسنت احوال البلاد سمح للأولاد (الذين كان القانون الحريص يقضي عليهم بالاحتراق في نيران « مولوخ ») ان يحظوا بالنجاة على ان يقتحموا الارض النارية باقدامهم . ومهما يكن، فان مثل هذا الطقس الديني ما زال متبعاً في كثير من بقاع الارض : فيقوم البعض بالمشي بوقار عبر ارض مكسوة بحجارة ملتهبة ، او رماد اخشاب ما زال وميض النار فيها ، وحولهم جمع كبير من المتفرجين . ففي « كستابالا » في كابادوكيا الجنوبية، كان الشعب يعبد إلهة آسيوية يدعوها الاغريق « ارطاميس » . وكان من دأب سدنتها ان يمشوا حفاة الاقدام على نار فحم الخشب دون ان يلحق بهم اي اذى . ومما يوحي بان هذا الطقس بديـــل عن حرق اناس آدميين احياء او امواتاً ، ان الاساطير تجعـــل مشهد مخاطرات « اورستيس » وارطاميس الطورسية في كستابالا ، فان الرجال او النساء الذين كانوا يُقدّمون ضحية لارطاميس الطورسية، كانوا يقتلون اولاً بحد السيف ، ثم يحرقون في نار مقدسة . وفي وسعنا ان

نتبين أثراً آخر لهذه العادة بين القرطاجيين في القصة التي تقول ان الملك القرطاجي هملقار ، في معركة « هميرا » التي قاتل فيها رجاله الاغريق قتالاً مستميتاً ، واستمرت من الفجر حتى اواسط الليل ، مكث في المعسكر وراح يلقي بعشرات الضحايا في محرقة مريعة . غير انه عندما رأى جنوده يتقهقرون امام الاغريق ، ارتمى على اللهب الثائرة وقضى نحبه حرقاً . فجعل مواطنوه فيما بعد يقدمون له الضحايا ، وشيدوا له نصباً عظيماً في قرطاجة ، كما شيدت له نصب أخرى أصغر في المستعمرات القرطاجية كلها. ففي الملمات الوطنية التي كانت تتطلب اتخاذ اجراءات شديدة ، ربما ارتأى ملك قرطاجة ان الشرف يدعوه الى تضحية نفسه على النمط القديم في سبيل بلاده . وتكريم هملقار بعد موته انما يبرهن على ان القرطاجيين لم يروا في عمل ملكهم انتحار اليائس ، بل شجاعة البطل .

فاذا نظرنا الى هذه الادلة كلها مجموعة ، وجدنا انها تثير افتراضاً قوي الحجة ، وان لم تكن حجة دامغة : وهو انه كان في مدينة صور ومستعمراتها عادة حرق الاله ، ولا سيما ملكارث ، اما بشكل تمثال ، او بشكل انسان يمثل الاله ، ويجري ذلك في عيد سنوي . ومن هذا بوسعنا ان نفهم اعتقاد الناس القائل بان هرقل – وهو يمثل الاله الصوري – فارق الحياة بالقاء نفسه طائعاً في المحرقة. ولعل الاغريق كثيراً ما راقبوا في دجى الليل ألسنة اللهيب تحرق ملكارث على كل شاطىء ، وفي كل ميناء حيث اقام الفينيقيون متاجرهم ومصانعهم ، فعلموا ، وقد امتلأوا دهشة ، ان هؤلاء الغرباء

العجيبين إنما يحرقون إلههم . وربمـــا نبتت اصول اسطورة هرقل ورحلاته وموته في النار من هـــذه المحارق . بيد ان الاغريق لم يستعيدوا الاسطورة فحسب ، بل عادة حرق الاله ايضـــاً : فكلما احتفلو بعيـــد هرقل اقاموا المحرقة لذكرى موت بطلهم وسط اللهب على جبل اويتا . ونظن – وان لم يكن لدينا نص صريح عـــلى ذلك – انهم كانوا ايضاً كل مرة يحرقون تمثالاً لهرقل في المحرقة .

الفصل السادس

حرق صندان

١ - بعل طرسوس

كان سكان قبرص يعبدون ملكارث الصوري جنباً الى جنب مع ادونيس في بلدة أماثوس ، وتدل النقوش الفينيقية على انه كان موضع التبجيل ايضاً في « ايداليوم » و « لارناكس لابيثوس » . ويلوح ان الاغريق في البلد الأخير جعلوا منه إلهاً بحرياً ورأوا فيه « بوسايدون » إله البحر عندهم . وقد وجد في اماثوس تمثال عجيب لعله يمثل ملكارث بصفته قاتل الاسود ، وهي الصفة التي اغدقها الاغريق على هرقل . وهو تمثال عملاقي الحجم لاله مرصوص البنية ، مفتول العضل ، مكسو الجسم بالشعر ، ويكاد يشبه الوحش منظراً . بعينيه الجاحظتين ، واذنيه الكبيرتين ، وعلى رأسه قرنان غليظان . وله لحية جعداء مربعة ، ويستقر شعره على كتفيه في ثلاث ضفائر ، ويظهر ان هناك وشماً على ذراعيه المكتنزتين . وحول حقويه جلد أسد مشدود بعقدة ، ويرفع بين يديه جلد لبؤة ممسكاً برجليها الخلفيتين ، في حين قد تدلى رأس اللبؤة – وهو الآن مفقود – بين ساقيه . ولا شك ان الماء كان ينطلق في نافورة من بين فكي اللبؤة ، لأن هناك ثقباً مربعاً حيث كان الرأس ، يتصل بقناة تمتد الى ثقب آخر في مؤخرة التمثال .

وقد اقتبس الفنانون الاغريق من هـــذا التمثال او ما شابهه من التماثيل البربرية فكرة جميلة لتمثال هرقل الاغريقي، اذ مثلوه لابساً جلد الأسد كقلنسوة على رأسه . وقد اكتشفت في قبرص تماثيل له تصور المراحل الوسطى في هذا التطور الفني ، غير اننا لم نعثر على ما يثبت ان القبرصيين كانوا يحرقون ملكارث الصوري تمثالاً او بشخص انسان يمثله .

بيد ان هناك دلائل واضحة تشير الى ان القوم اتبعوا هـــذه العادة في كيليكيا ، وهي البلد التي لا يفصلها عن قبرص إلا البحر، والتي تقول الاساطير ان عبادة ادونيس جاءت منها الى الجزيرة . ولم يحسم المؤرخون بعد فيما اذا استعمر الفينيقيون كيليكيا ام لا ؟. غير ان سكانها كانوا يعبدون حتى الازمنة المتأخرة إلهــاً ذكراً يلوح من صفاته انه شرقي صرف ، رغم تشبيهه سطحياً بإله اغريقي، اتباعاً لاهواء العصر . وكان مقره الرئيسي في « طرسوس » في سهل وافر الخصب، يكاد يكون مناخه استوئياً لو لم تلطفه النسمات الهابة من سلسلة جبال طرسوس المكسوة بالثلوج شمـالاً ، ومن البحر جنوباً . واذا كانت طرسوس تفخر بمدرسة للفلسفة الاغريقية اعظم من مدرستي اثينا والاسكندرية في اوائـل العصر الميلادي ، فان المدينة في الواقع بقيت شرقية في جوهرها وروحها وعاداتها. فكانت النساء يمشين في الشوارع متسربلات من الرأس حتى القدم بالازياء الشرقية ، وقرّع « ديو فم الذهب » الاهالي بانهم يشبهون خلعاء الفينيقيين لا الاغريق ، رغم تقليدهم الأعمى للمدنية الاغريقية .وقد شبهوا إلههم على نقود مدينتهم بزفس ، فصوروه جالساً على العرش

والجزء الأعلى من جسمه عارٍ ، والأسفل مكسو بثوب فضفاض ، يحمل باحدى يديه صولجاناً يعلوه احياناً نسر ، وفي اغلب الأحيان زهرة اللوتس ، على ان اسمه ومميزاته تدل عـــلى انه إله اجنبي : فالكتابة الآرامية على النقود تدعوه بعـــل طرسوس ، ويحمل في احدى يديه سنبلة قمح وعنقود عنب . ومميزات كهذه تنسب اليه تشير الى انه إله خصب عام،ينعم على عباده بالشيئين اللذين يؤثرونها على كل نعم الطبيعة الاخرى ، وهمـــا القمح والخمر . ولذلك فمن المرجح انه إله سامي ، ، او على كل حال شرقي ، لا اغريقي . فبينا كان السامي يصب آلهته جميعاًفي قالب واحد،ويتوقع من جميعها ان تمنحه نفس العطايا ، راح الاغريقي ، بما له من ذكاء أحد، ومخيلة مفعمة بالصور ، يسبغ على آلهته سجايا شخصية ، موزعاً على كل منها مهمة مختلفة في النظام الآلهي للدنيا . ولذا عزا انتـــاج القمح الى الالهة « ديمتر » ، وانتاج العنب الى « ديونيسوس » ، ولم يرَ من المعقول ان يطلب الاثنين من إله واحد كثير العمل شديد العناء .

٢ – إله ابريز

ان الظن بان بعل طرسوس ، رغم تشبهه بزفس ، إله شرقي ، يدعمه تمثال رائع منقور في الصخر ما زال في ابريز في « كابادوكيا الجنوبية » . وهذه البلدة لا تبعد اكثر من خمسين ميـــلًا عن طرسوس في خط مستقيم . غير ان السفر اليها على الحصان يستغرق خمسة ايام،لان جبال طوروس الشاهقة تقف كالحائط بين المدينتين. وهي جبال يتعالى نحو السماء مكسوة القمم بثلوج تأخـذ البصر ، ويغشى السواد منحدراتها السفلى لكثافة آجام الصنوبر فيها ، واذا

تخطاها المرء وبلغ هضبة الاناضول المنبطحة امامه ، شعر كأنه قد ترك آسيا وراءه ، وان الطريق الى اوروبا تمتد الآن امامه . وقد كانت جبال طوروس السد الذي وقف في وجه الغزاة العرب ردحاً طويلاً من الزمن، ومن طوروس حتى القسطنطينية كانت هناك سلسلة من المنارات تعلم باضوائها العاصمة البيزنطية بدنو جيوش المسلمين .

وتقع قرية إبريز على السفوح الشمالية لطوروس على بعد ستة اميال او سبعة جنوب بلدة « إرغلي » ، والطريق التي تصل بين البلدة والقرية تمر خلال اقليم غني بالخضرة، مترع بالقمح والكروم، تتخللها ممرات رائعة الحسن ، وحولها حقول ملأى باشجار الجوز والبندق والحور ، تغني فيها البلابل في اول الصيف من كل ناحية . وابريز نفسها اشبه بعريشة مترامية الاطراف من اشجار الفاكهة والدوالي . وتشرف على هاوية عميقة تحيط بها مرتفعات من الصخر الاحمر ، ويتدفق من احد هذه المرتفعات نهر في صفاء البلور ، غير ان لونه غامق الزرقة ، وإذ تمده عشرات الجداول والينابيع بالمياه، سرعان ما يتحول الى سيل غاضب لا يمكن اجتيازه ، يرغي ويزبد مزمجراً فوق الصخور التي في مجراه . وعلى بعد قليل من المنبع يجري فرع من فروع النهر في قناة ضيقة عميقة حول صخرة باهتة الحمرة ، لطختها عوامل الطقس ، تقف وقوفاً عمودياً فوق المياه . وعلى سطحها المصقول توجد التماثيل المنقورة . وهي تتألف من شكلين ضخمين يمثلان إلهاً يصلي اليه عابده . اما الاله — ويبلغ ارتفاعه حوالي اربع عشرة قدماً — ففي شكل رجل ملتحى ، يلبس على رأسه قبعة مدببة عالية ، تزينها عدة ازواج من القروق،

ويلبس ثوباً بسيطاً قصيراً لا يبلغ ركبتيه ، وقدماه وذراعــاه عاريتان ، وتحيط بمعصميه اساور ، وله حذاء مقــدمه مرفوع الى الأعلى . ويمسك بيمناه غصن كرمة محملًا بالعناقيد ، ويرفــع في يسراه باقة من سنابل القمح ، تمتد سيقانها حتى قدميــه . ويقف امامه الشكل الثاني وهو اصغر منه ، وهو بالطبــع الكاهن او الملك ، او بالاحرى كلاهما معاً ، وثيابه الفاخرة التي تبلغ قدميــه بزخارفها الكثيرة تتباين بوضوح وزي الاله البسيط . ويلبس قبعة مستديرة ، ولكنها غير مدببة ، تزينها مجموعة من الجواهر ، وحول عنقه قلادة ضخمة ، ومعصمه الظاهر محلّى بالاساور ، وحذاءه مثل حذاء الاله . واحدى يديه او كلتاهما معاً مرفوعة كنــاية عن تعبده . وكلا الاله وعابده يتميز بانف معقوف كبــير كأنف الصقر ، وشعر كليهما كثيف وجعد .

ويشبه مكان هذا النصب العجيب المكان الذي وصفنــاه في « افقه » في لبنان ، ففي كليهما نجد نهراً رائعاً يتدفق فجأة من الصخر لكي ينشر الخصب في الوادي الاخضر الذي في اسفله ، ولعل الناس لم يجدوا مكاناً خيراً من هذا وانسب لعبادة تلك القوى الطبيعيــة الهائلة التي كانوا ينسبون اليها أثمار الارض وتكاثر الحيوان . ولربما كان هذا الوادي ، بهوائه القرير المنعش وخضرته الخثلة ومياهــه النقية المثلجة— وما ألذها في قيظ الصيف الملتهب — وسهوله الشاسعة الخصبة ، مقراً لامير او كاهن أعلى في غابر الازمان ، فاقام هــذا النصب شاهداً على حبه للاله وشكره الخالص له . ولعل مركزه كان في « كيبسترا » ، وتدعى اليوم « إرغلي »، وهي بلدة عبثت

بها ايدي الزمن ، وتراها تمتد بين آجام الجوز والجور والصفصاف والتوت والسنديان ، تملأها العصافير المغردة . غير اننا اذا ابتعدنا قليلاً عن هـــذا المكان لم نجد إلا اراضي مترامية جرداء كقاع صفصف ، او مستنقعات تنفث في الشمس المحرقة سموم الملاريا . ومهما امتد النظر غرباً لا يقع إلا على البطاح التي لا حد لها ، جدباء ليس فيها شجرة واحدة ، ولعل المرء يرى من بعيد رؤوساً مدببة لجبال بركانية ، تستقر عليها ظلال السحب في الطقس المشمس بنفسجية وناعمة كالمخمل . فلا عجب اذن ، إذ كان قرب هذه القفار الموحشة ارض ازدحمت بالنبت والشجر ، ان عدهـا الانسان البدائي جنة الله على الارض .

وجدير بالانتباه ان من خصائص إله « ابريز » كإله للخصب ، ان هناك قروناً على قبعته العالية ، ولعلها قرون ثور . فأقرب رمز للقوة التناسلية الى مخيلة ذوي الماشية البدائيين هو الثور . فقـــد اكتشفت في « كركميش » — جرابلس — عاصمة الحثيين الكبرى على نهر الفرات ، صورة منقورة في صخر تمثل إلهاً او كاهناً في ثياب فاخرة ، يلبس قبعة فيها قرون يعلوها قرص مستدير . وقد اثبتت التماثيل التي وجدت في « ايوك » ، في شمال غربي كابادوكيا ، ان الحثيين كانوا يعبدون الثور ويقدمون الكباش له ضحية ، وكذلك تصور الاغريق إله الخمر ديونيسوس في شكل ثور .

٣ — صندان طوسوس

يمكن القول بانه قد تأكد الآن أن إله ابريز الحامل عنبـــاً وسنابل في يديه ، هو بعل طرسوس نفسه ، الذي يحمل هـــذين

الشعارين ايضاً ، ولكن ما اسمه ؟.. ومن كان عباده؟. يبدو ان الاغريق دعوه هرقل : وقد اتخذت بلدة « كيبسترا » المجاورة كلمة (هرقليا) ، تسمية لها في العصور البيزنطية ، مما يدل على ان هرقل كان يعتبر الاله الاول فيها . بيـــد ان اسلوب النحت في الصور المنقورة في ابريز وزي الاله والكاهن يبرهنان برهانــاً لا مرية فيه على ان الاله شرقي . ويدعم هذا البرهان النقوش المحفورة في الصخرة قرب التماثيل ، فهي مكتوبة برموز تعرف الآن بالحثية. اذن يكون الاله المعبود في طرسوس وابريز إلها حثياً . والحثيون قوم عريقون في القدم لا يُعرف عنهم الا القليل ، كانوا يسكنون وسط آسيا الصغرى ، وقد ابتدعوا لانفسهم احرفاً للكتـــابه ، ونشروا نفوذهم – ان لم يكن سلطانهم – في احـــدى فترات التـاريخ ، من الفرات حتى البحر الايجي ، والهضاب الوسطى ، وهي امتداد الهضبة العظمى في اواسط آسيا ، لها مناخ يـــتراوح بين الحرارة المحرقة في الصيف ، الى البرد القارس جداً في الشتاء ، ومن عليها يبدو ان هؤلاء الجبليين باجسامهم القوية زحفوا جنوباً في فجاج الجبال وممراتها بحشود كبيرة ، وحطوا رحالهم ، في عصر مبكر جداً في سهول سوريا وكيليكيا الخصيبة . ومـــا زال عنصرهم ولسانهم موضع البحث والدرس . غير ان الرأي السائـد هو انهم ليسوا ساميين عنصراً ولا لساناً .

يقول اثنان من العلماء الذين درسوا النقوش المرفقة بتمثال إله ابريز ، انهم قرأوا اسم « صندان » او « صنـدا » . ومهما يكن من امر فهنـاك ما يحدوا الى الظن بان صندان او صندون او

صنديس كان اسم إله الخصب في كبادوكيا وكيليكيا . وذلك كما قلنا ، يظهر ان إله ابريز في كبادوكيا هو الاله الذي اطلق عليه الاغريق اسم هرقل . وهناك من الكتابات ما يشير الى ان اسم هرقل الكيليكي او الكبادوكي هو صندان او صنديس . وقيل ان صندان او هرقل هذا انشأ مدينة طرسوس ، وكان اهل المدينة يحتفلون بعيده كل سنة – او على الاقل بين حين وآخر – باقامة محرقة كبيرة من اجله . ويلوح ان الاله كان يحرق في هذا العيد بشكل تمثال يلقى به في المحرقة ، كما في عيد ملكارث . فان نقود طرسوس كثيراً ما تصور المحرقة كبنيان مخروطي مثبت على قاعدة او هيكل مغطى بالاكاليل ، وفي وسطها صورة صندان نفسه ، وعلى قمه المحرقة نسر بجناحين مبسوطين ، كأنه على استعداد لحمل روح الاله المحروق الى السماء في عمود من النار والدخان .

وكذلك عندما كان الامبراطور الروماني يموت ، تاركاً ابناً يخلفه على العرش ، كان يصنع من الشمع تمثال في شبه الامبراطور الراحل ويحرق على محرقة ضخمة هرمية الشكل تقام على قاعدة مربعة من الخشب ، وبعد ذلك يطلق من قمة الكومة الملتهبة نسر لكي يحمل الى السماء روح الامبراطور المؤله . ولعل الرومان اقتبسوا هذه العادة بما فيها من البهرجة من الشرق ، لأن في ثناياها روح التملق والاطراء الشرقية عوضاً عن البساطة الرومانية .

وشكل صندان او هرقل ، كما تصوره نقود طرسوس ، هو شكل إله اسيوي ، واقف على اسد . وهو يمثل هكذا على المحرقة . ويمثل هكذا ايضاً بدونها . ومن هذه الصور يمكننا ان نكون

فكرة تقارب الدقة عن شكل الاله وميزاته . فهي تصوره رجلاً ملتحى واقفاً على اسد ذي قرنين،وغالباً ذي جناحين ايضاً .ويلبس على رأسه قبعة مدببة عالية ، ويكتسي بثوب طويل احياناً ، وقصير احياناً اخرى . وعلى جنبه او كتفه سيف او غلاف قوس وجعبة ، او كلاهما ، يمناه مرفوعة وتمسك احياناً بزهرة . وفي يسراه فأس ذات رأسين ، واحياناً اكليل مع الفأس او بدونها . غير ان الفأس من اكثر ميزاته ظهوراً في صوره .

٤ – الملوك الكهنة في « اولبا »

لسوء الحظ لا نعرف الا النزر اليسير عن ملوك طرسوس وكهنتها . غير اننا نعرف ان فيلسوفاً ابيقورياً من فلاسفة المدينة في عصورها الاغريقية ، يدعي «ليسياس» ، انتخبه مواطنوه لكي يكون « لابس التاج » ، اي كاهن هرقل . واذ حاز على تلك المرتبة السامية رفض ان يتنازل عنها ، ولعب دور الطاغية : فلبس رداء ابيض حواشيه من الارجوان ، وعباءة فاخرة ، وحذاء ابيض، واكليل غار من الذهب . وحبب نفسه الى الرعاع بان وزع عليهم اموال الاثرياء ، وامر باعدام كل من يرفض ان يفتح له كيس دراهمه !.. ونحن اذ لا نستطيع في هذه القصة ان نميز بين استعمال السلطة القانوني ، واستعمالها غير القانوني ، يمكننا مع ذلك ان نستنتج ان سدانة هرقل – اي صندان – في طرسوس بقيت ، حتى الازمنة المتأخرة وظيفة ذات شأن وسلطة واسعة ، لا يستنكف الملوك انفسهم من احتلالها في العصور المبكرة . ومهما تكن معلوماتنا ضئيلة عن ملوك كيليكيا ، فاننا نعرف عن اثنين

منهم يدل اسماهما على علاقة خاصة قائمة بينهما وبين الاله صندان . احدهما « صندو آري» سلطان « كندي وسيزو» (وتسميّان اليوم « انسيالي وسيس »في كيليكيا)، والآخر« صندا صارمي » الذي زوّج ابنته من« آشور بانيبال » ملك آشور . ويجوز لنا ان نقول ان ملوك طرسوس كانوا فيما مضى كهنة لصندان،وادعوا بانهم يمثلون الاله بشخصهم ، قياساً على ما نعرفه من علاقة الملك بالاله في اماكن اخرى .ونعرف ايضاً ان كيليكيا الغربية– او كيليكيا الجبلية– كان يحكمها برمتها ملوك جمعوا بين وظيفة الملك ، وبين كهنوت زفس – او بالاحرى الاله المحلي ، كبعل طرسوس ، الذي اطلق عليه الاغريق فيما بعـــد اسم زفس . وكان مقر هؤلاء الحكام الكهنة في « اولبا » ، وسمي اكثرهم باسم « تيوكروس » او « آجاكس » : وربما كانت هذه الاسماء تحريفات اغريقية لاسماء كيليكية اصلية.ولعل « تيو كروس »في الاصل«تارك»او«تروك» او «تاركو» او «تروكو»، وكلها اسماء كهنة وملوك كيليكيين . ومهما يكن فانه جدير بالملاحظة انه كان لاحـد هؤلاء اب يدعى « تركواريس » . وهذا اسم كثير الظهور في القائمة الطويلة باسماء الكهنة الذين كانوا يقومون بسدانـــة هيكل زفس في غار « كوريكوس » الذي لا يبعد الا بضعة اميال عن اولبا ، وهي اسماء محلية تتخللها كثير من الاسمـــاء الاغريقية كتيوكروس وغيره :

وكانت هناك سلالة حاكمة في سلاميس في قبرص تـــدعى سلالة تيوكروس ، تنسب اصلها إلى زفس ، ولا يستبعد ابداً ان

تكون هذه ايضاً سلالة قبرصية ابتدعت لنفسها النسب الى زفس في عصر كانت فيه الحضارة الاغريقية محط الانظار .

ثم ان الشكل الفظيع للتضحية البشرية التي كانت من عادات المدينة حتى الازمنـــة التاريخية ، يذكر المرء بالبربرية الشرقية لا الانسانية الأغريقية. فكان الشباب يسوقون امامهم رجلاً يدفعونه الى الركض ثلاثاً حول المذبح ، ثم يطعنه الكاهن برمح في حلقه ، ويحرق جسدة كاملاً على احطاب المحرقة . وكان موعد هذه التضحية في شهر افروديتي. وقد بقيت هذه العادة متبعة حتى زمن «هدريان» عندما امر « ديفيلوس » ملك قبرص بالغائها او قل تلطيفها باستبدال تضحية الرجل بتضحية جاموس . وبناء على هذا الفرض تكون الاسماء الاغريقية التي اطلقت على الآلهة والابطـــال في سلاميس القبرصية قد غطت على الاسماء الاصلية لآلهة وابطال آسيويين ، بل اننا قد نرى في عـــادة تضحية انسان بالنار في سلاميس الشكل الاصلي للمراسيم التي كانت تقام في الازمنة القديمة عندحرق تمثال صندان او هرقل في طرسوس . وعندما اخذوا يضحون جاموساً عوضاً عن رجل ، حافظوا على جميع الطقوس الاخرى كما كانت قبلاً بالضبط : فيساق الجاموس ثلاثاً حول المذبح ويطعن ثم يلقى به على المحرقة .

وفي بلدة « هيرابوليس » السورية كان اكبر عيد في السنة يدعى عيد المحرقة ، او عيد المشعل ،ويجري الاحتفال به في اوائل الربيع. فكان الناس يقطعون الاشجار الباسقة ويزرعونها في فناء الهيكل ، ويعلقون عليها الخراف والكباش والعصافير وغيرها ، وتساق الضحايا

حولها ، ثم تشعل فيها النار فتلتهم كل شيء هناك . ولعل حرق الحيوانات هنا ايضاً كان عوضاً عن حرق الاناس . فاذا ما جعل البشر يشمئزون من تضحية البشر، اخذوا يستعيضون عنهم بالحيوانات او بصور رجال ونساء احياء . فلا ريب ان الحيوانات كانت تحرق في سلاميس ، ولعلها كانت تحرق ايضاً في هيرابوليس : امـــا في طرطوس فاغلب الظن انهم كانوا يحرقون الصور والتماثيل . ويجدر بنا هنا ان نذكر ما قاله كاتب اغريقي عن عبـــادة ادونيس في قبرص ، فقد قال ان افروديتي قدّست ادونيس ، ولذلك كان القبرصيون بعـــد موته يلقون بالحمائم حية في المحرقة من اجله ، فتطير من بـــين اللهب ثم تقع في محرقة اخرى حيث تأتي عليها النيران . ويبدو ان هذا وصف لعادة حرق الحمام ضحية لأدونيس. وعادة كهذه من الغرابة بمكان ، لأن الحمائم كانت مكرسة لحليلته الألهية افروديتي او عشتاروت . في هيرابوليس السورية مثـــلاً – وكانت من اهم مراكز عبادتها – كانت تقدس هـــذه الطيور ويحرم على الناس حتى لمسها . فاذا مس رجل حمامة دون قصد منه اعتبر نجساً يجب تجنبه طيلة ذلك اليوم . ولما لم يصب احـــد هذه الطيور بأذى غدت اليفة تقيم في منازل الناس وتلتقط طعامهـا من على الارض امامهم غير خائفة . افلا يجوز ان يكون حرق حمامة افروديتي المقدسة في عبادة ادونيس في قبرص بـــدلاً لحرق رجل مقدس يمثل عشيق الالهة ؟..

٥ ـ الالهات الكيليكية

كنا حتى الآن نتحدث عن الآلهة الكيليكية الذكور ، ولم

نجد بعد اثراً للألهـــة الام الكبرى التي تلعب دوراً مهماً في دين كابادوكيا وفريجيا الواقعتين خلف جبال طوروس ، ولكن في وسعنا ان نقول انهـــا لم تكن مجهولة في كيليكيا ، وان تكن عبادتها هناك اقل ظهوراً منها في وسط آسيا الصغرى . وقد يمكن تفسير هذا الفرق كدليل على ان القرابة بالام (اي الانتساب اليها دون الاب) بقيت في المرتفعات الوسطى القاحلة ، في حين تضافر الطقس المعتدل ، والتربة الخصبة ، على إنماء حضارة ارقى في سهول كيليكيا الممرعة ، فتحولت فيها القرابة من الام الى الاب . ومهما يكن فاننا نعرف ان اجزاء مختلفة من هذا البلد كانت تعبد إلهات كيليكية ، إما برفقة آلهة ذكور ، او بدونهم .

ففي طرسوس نفسها كانت الالهـــة « عاثه » تعبد مع بعل ، وصورتها معاً منقوشة على نقود المدينة . وهي تمثل جالسة على اسد لابسة حجاباً ، واسمها منقوش بقربها بالآرامية . ويظهر من هذا ان المعتقد في طرسوس كان ان الاله الاب يضاجـــع لبؤة مثل كيبيلي الفريجية ، واطرغاطيس السورية . واطراغاطيس في الحقيقة تحريف اغريقي للاسم الآرامي « عـــثر – عاثه » ، وهي كلمة مركبة ، احد شقيها هو اسم إلهـــة طرسوس . وهكذا نرى ان شريكة بعل تقابل في الاسم والصفات اطراغاطيس الالهـــة الام السورية ، التي كان الناس يعبدونها ، مصورة جالسة على اسد او اسود ، في احتفالات باذخـــة رائعة في « هيرابوليس – بامبيكي » قرب الفرات . وهل لنا ان نتقدم خطوة اخرى في التخمين ، فنرى شبهاً بين بعل طرسوس والاله زوج اطراغاطيس في هيرابوليس –

بامبيكي ؟.. فقد رأى الاغريق في ذلك الاله الزوج « زفس » ، ويقول لوقيان (١) ان الشبه بين صورته وصورة زفس كان دقيقاً من كل ناحية ، ولكنه كان يصور جالساً على ثيران ، وزفس لم يصوّر كذلك فلعله كان في الواقع « حاداد » اكبر الآلهة الذكور في سوريا ، والذي يظهر انه كان إله الرعد والخصب : لأننا نراه في بعلبك في لبنان – وهيكل الشمس المهدم هناك اروع نصب خلفه الفن الاغريقي في طور الانحطاط لعالم اليوم – نراه في تمثال يقبض بيسراه على صاعقة وسنابل قمح ، كما ان تمثالاً آخر له وجد في شمال سوريا قرب «زنجرلي» يمثله برأس انسان له لحية وقرنان وهي رمز القوة والخصب . وكان البابليون والآشوريون منذ الازمنة القديمة يعبدون إله رعد وبرق مثله ، وكان اسمه مماثلاً : « آداد » ، ويبدو ان الصاعقة والثور كانا رمزين له. وهناك صورة ناتئة آشورية تمثله رجلاً ملحى يرتدي ثوباً قصيراً ، ويلبس قبعة فيها زوجان من القرون ، ويمسك بيمناه فأساً وبيسراه صاعقة . ولذلك فانه يشبه شبهاً قوياً إله السماء المرعدة الذي عبده الحثيون . ولهذا الاله البابلي والآشوري اسم آخر هو « رمّان » ، وهو اسم ينطبق عليه ، إذ انه مشتق من الفعل « رمامو » اي يصرخ او يزأر .

وقد رأينا ان إله إبريز الذي تماثل ميزاته ميزات بعل طرسوس يلبس قبعة تزينها القرون . ونجد في « بوغاز كيوى » (من مدن

---

(١) – كاتب سوري عاش في القرن الثاني للميلاد ، وكتب مؤلفاته بالاغريقية . (المترجم)

الحثيين) ان الاله، الاب ،يقابل الالهة الام راكبة لبؤة ،ويرافق الاله حيوان جرى تأويله على انه ثور . وكان الثور يعبد كرمز للخصب في « إيوك » قرب بوغاز كيوي : وهكذا يظهر انه في طرسوس وبوغـــاز كيوي وهيرابوليس بامبيكي كان الحيوان او الرمز المقدس للاله الاب ثوراً، وللآلهة الأم اسداً . ويبدو ان هذه الألهة فيما بعد -بتأثير الاغريق- تحولت الى الهة الحظ او استبدلت بها . والهة الحظ هذه ترى في نقود طرسوس امرأة جالسة ، وعلى رأسها نقاب وفي يدها سنابل قمح وزهرة من شقائق النعمان . ولا يرى اسدها هنا ، ولكن آثاره ظاهرة في احدى قطع النقود حيث يزدان عرش الألهة بساق اسد . وبالاجمـــال فان إلهة الحظ التي اصبحت تعتبر حامية في المدن الشرق الاغريقي ، وبخاصة في سوريا ، لم تكن إلا « غاد » متخفياً -وهو إله الحظ والنصيب عند الساميين. وهو وان يقتض صرف اللغة جعله مذكراً، لم يكن في الواقع غالباً الا مظهراً من مظاهر الألهة الكبرى عشتاروت، او اطراغاطيس، حين كانت تعد حامية المدن ونصيرها . وعلينا الا ندهش لتحولات واقترانات كهذه في الاديان الشرقية . فليس شيء بمستحيل على الآلهة . ففي قبرص كان لالهة الحب لحية ، وكان الاسكندر الكبير يلهو احياناً في ثياب ارطاميس كما انه في مناسبـــات اخرى راح يعبث بالازياء الالهية، فظهر مرة كهرقل، ومرة كهرميس، واخرى كعمون . ويسهل تحول الالهة « عاثه » في طرسوس الى « غـاد » او الحظ اذا فرضنا انها كانت تدعى « غاد-عاثه » اي « حظ هاثه »، وهو اسم يرد في النقوش السامية . وكذلك لعل إلهة الحظ في اولبا

– التي كان هيكلها الصغير قرب هيكل زفس العظيم – كانت في الاصل قرينة الاله المحلي « تارك » او « تاركو » .

واذ قسنا على هذا فقد نجد ان ارطاميس[1] التي كان لها هيكل في جنوب شرقي كيليكيا ، قرب الحدود السورية، كانت في الحقيقة إلهة محلية استعارت لنفسها فيما بعد زينة الاغريق . وكانت تدلي باجوبة ملهمة بافواه رجال ملهمين او على الارجح نساء ملهمات ، كن اذا ما اصابتهن نشوة الوحي الالهي قد يعتبرون تجسداً للالهة . وهناك الهــة اخرى تشف بوضوح عن اصلها الآسيوي ، وهي « بيراسيا » او ارطاميس بيراسيا ، التي كانت تعبد في هيرابوليس كستبالا في كيليكيا الشرقية .وتعرف البلدةاليوم بإسم«بودروم»، وتمتد فيها الخرائب القديمة على منحدر تلة تبعد حوالي كيلو متر واحد شمالي نهر « بيرامس » . وهيكل الآلهة الضخم مبني فوقها على قمة صخور تشرف على هاويات سحيقة الغور . وقــد كان في المدينة مسرح مدرج كبير ، فيه رواقان معمدان جميلان ، ما زالت بعض اعمدتها واقفة بين الاطلال . وليس في هــذا المكان الآن الا الحشائش والشجيرات الكثيفة ، وتسوده الوحشة ، اذ لا يقيم قرب هــذه المدينة المهجورة سوى رعــاة رحل يخيمون هنــاك في الشتاء والربيــع ، والمكان خلو من

---

(١) – هي عند الاغريق من الهاتهم البارزات ، ويقابلها عند الرومان ديانا . وهي الهة العفاف ، وقد اعتبرت فيما بعد حامية الفتيات والفتيان الذين يقاومون سلطان افروديتي ويحتقرونه . وهي تمثل عادة حاملة قوساً وجعبةمن السهام (لانها ايضاً الهة الصيد) ، وتنزل الموت احياناً بالبعض. وعلى الاخص النساء ، حين يسيئون اليها او الى العفاف . (المترجم)

الشجر ، غير ان حقول القمح والشعير في شهر ايار تسر العين بمنظرها الرائع . ولا نعرف بالضبط نوع الالهة التي كانت ربة الهيكل في هذه المدينة ، بل ان طبيباً معاصراً لها لم يكن واثقاً من ذلك، فكتب يقول انه يترك البت في هذا الامر للالهة ، فلعلها ان تفصح عن حقيقتها : أهي ارطاميس ، او القمر، او إلهة الليل، او افروديتي، او ديميتر ؟.. فكل ما نعرف هو ان اسمها كان بيراسيا وانها كانت تتمتع بدخل مستمر . ويجوز لنا ان نتصور ان طقوس عبادتها كانت مماثلة لطقوس عبادة ارطاميس في مدينة كستبالا في كابادوكيا . فهناك - كما رأينا - كانت كاهنات الالهة يمشين على النار ولا يلحق بهن الاذى . فلعل الكاهنات في كستبالا الكيليكية كن يقمن بنفس الطقوس امام اعين المتعبدين الذين يدهشون لمثل تلك الآية . ومهما يكن مغزى هذا الطقس بالضبط، فالارجح انالالهة كانت احدى الآلهات الامهات الآسيويات اللواتي كان الاغريق يطلقون عليهن اسم ارطاميس. وكان الناس يعزون عصمة الكاهنات من اذى اتون النار الى الهام الالهة لهن . والفيلسوف السوري « يمبليخوس » ، حين بحث في طبيعة الالهام الالهي ، يذكر ان من عوارض هذا الالهام عدم شعور صاحبه بالالم مطلقاً . فيقول : (ان الكثيرين من الملهمين لا يحترقون بالنار ، اذ لا تصيبهم السنة اللهيب بسبب ما بهم من الألهام الألهي . والكثيرون ، منهم، وان يحترقوا لا يدركوا ذلك لانهم حينئذ لا يعيشون حياة الحيوان . فهم يحرقون انفسهم بالسياخ ولا يشعرون بألم . ويضربون ظهورهم بالفؤوس

ويجرّحون اذرعهم بالخناجر ولا يعرفون ما هم فـاعلون ، لأن افعالهم ليست كافعال الناس العاديين . فكل من امتلأ بالروح يمر حيث لا يستطيع احد المرور : فهو يقتحم النار ، ويمشي خلال اللهيب ، ويقطع الانهر ، ككاهنة كستبالا . وهـذه الامور تثبت ان من امتلك الوحي خرج عن نفسه ففدت حواسه وارادته وحياته غير تلك التي يعرفها الانسان او الحيوان ، فيحيا حينئذ حياة اقرب الى الالوهية التي تلهمه وتحل فيه .)

وهكذا نرى ان « كاهنات بيرا سيا » حين كن يمشين في اتون النار كن يعتبرن خارجات عن انفسهن وان الالهة قد حلت فيهن ، فاصبحن في الفعل شكلاً مجسداً لها .

٦ – حرق الآلهة الكيليكية

ومجمل القول اذن ، ان لنا الحق في الاستنتاج ان الآلهة التي اوجدتها بلاد كيليكيا بقيت حية مدة طويلة ، وان تكن قد اتخذت لنفسها صبغة رقيقة من الانسانية الاغريقية ، وان الالهة الآسيوية الكبرى احتلت مكاناً بينها ، وان لم يكن بارزاً كالمكان ألذي احتلته في المرتفعات الداخلية حتى اوائل العصر الميلادي على الاقل . ولعلني مصيب في الرأي ، اذ اقول ان مبدأ تمثيل الكاهن او الكاهنة الملهمة للألهة كان معمولاً به في كستبالا واولبا ؛ وفي هيكل ارطاميس الآنفة الذكر . ولذلك فليس من المستبعد ان الثالوث الالهي في طرسوس ، المكوّن من بعل وعاتة وصندان كان يمثله الكهنة والكاهنات . واذا قسنا هؤلاء الكهنة بمن يوازيهم في اولبا وفي المعابد الكبيرة في داخل آسيا الصغرى ، وجدنا انهم

في الاصل ليسوا كهنة فحسب ، بل هم ، في الوقت نفسه ، ملوك وملكات ، امراء واميرات . اضف الى ذلك ان حرق صندان تمثالاً او صورة في طرسوس يقابله — حسب فرضنا هذا — مشي كاهنة بيراسيا في اتون النار في كستبالا . ولعل في كلتا العادتين تلطيفاً لعادة اعدام الملك الكاهن ، او الملكة الكاهنة بالنار ، او عضو آخر من اعضاء الاسرة المالكة .

الفصل السابع

سردنابالس وهرقل

١ – حرق سردنابالس

إن نظرية حرق الملوك والامراء في الازمنة الغابرة في طرسوس بصفتهم آلهة ، تدعمها بوجه خاص حجة مستقلة كل الاستقلال عما سبق . فهناك رواية تقول ان مؤسس طرسوس لم يكن صندان ، بل سردنابالس ، الملك الاشوري المشهور ، الذي كان انتحاره على محرقة هائلة من اشهر ما تلهج به الاساطير الشرقية. ففي القديم كان على مقربة من البحر وعلى مسير يوم من طرسوس خرائب مدينة عظيمة عريقة في القدم تدعى « انكيالي » . وكان خارج اسوارها نصب يسمى بنصب سردنابالس،وفيه تمثال الملك منقور في الصخر ، وهو يطرقع باصبعي يده اليمنى . وقد فسرت ، اشارته تلك في نص منقوش بحروف آشورية يقول ما معناه : (لقد بنى انكيالي وطرسوس في يوم واحد سردنابالس بن اناكندراكسيس . كلوا واشربوا وامرحوا ، فكل ما عدا ذلك لا يساوي هذا) ، اي ان كل اعمال الانسان الاخرى لا تساوي طرقعة اصبعين . ومن الجائز ان الاشارة اولت تأويلاً خاطئاً، وان النقوش ترجمت ترجمة غير صحيحة ، ولكن ليس هناك ما يحدو بنا الى الشك في وجود نصب كهذا ، وان يكن من المحتمل انه حثي الاصل لا آشوري.

وحتى لو اغفلنا آثار الفن الحثي والدين الحثي التي وجدناها في طرسوس ، فقد اكتشف المنقبون مجموعة من النُصُب الحثية في «مرعش» ، الواقعة في الوادي الاعلى لنهر بيرامس . ولربما حكم الآشوريون كيليكيا ردحاً من الزمن ، الا ان التأثير الحثي كان على الارجح ابقى واعمق . وقد تكون قصة بناء سردنابالس لمدينة طرسوس مشكوكاً فيها ، ولكن لا بد من سبب لاقتران اسمه بالمدينة .

ويمكن معرفة هذا السبب – حسب فرضنا الحالي – من الشكل الذي انتحر فيه حسب رواية الاساطير . فعندما حاصر الثوار مدينة نينوى ، لم يشأ ان يقع فريسة بين ايديهم ، فابتنى محرقة كبيرة في قصره ، وكوّم عليها الذهب والفضة والاثواب الارجوانية ، ثم حرق في لهبها نفسه وزوجته وجواريه وخصيانه .

والقصة ليست صحيحة عن سردنابالس الذي يذكره التاريخ ، أي الملك الآشوري العظيم « آشور بانيبال » (١) ، ولكنها صحيحة عن أخيه « شاماش شوموكين » . فقد عيّنه آشور بانيبال ملكاً على بابل ، فثار على سيده والمحسن اليه ، وجر على عاصمته وبال الحصار . وكان ذلك حصاراً طويلاً اشتدت فيه مقاومة البابليين المستميتة ، لأنهم كانوا يعرفون ان الآشوريين لن يرحموهم اذا

---

(١) احد عظماء ملوك آشور . لم يكن مبرزاً في الحروب (رغم بطشه الشديد على ايدي قواد كان يسلمهم سلطة حربية مطلقة) ، غير أنه اشتهر بحبه للفنون والآداب : ومكتبة نينوى العظيمة لم تكن الا من خلقه . وقد رأى فيه الاغريق موضوعاً لاعجاب كثير وروايات عديدة . (المترجم)

اقتحموا المدينة . غير ان المجاعة والاوباء قضت على عدد كبير منهم، ولم تستطع المدينة ان تطيل المقـــاومة اكثر . فعزم « شاماش شوموكين » على ألا يقع حياً في يد أخيه الغاضب ، فاغلق ابواب القصر وهناك حرق نفسه وزوجاته واولاده وعبيده وامواله ، في اللحظة التي كان فيها الظافرون يقتحمون الابواب.ولم تمض سنوات كثيرة على ذلك عندما اعاد المأساة نفسهـا « سينشاريشكون » ، آخر ملوك آشور ، فقد حرق نفسه في قصره عندما اطبقت عليه قوات ملك بابل الثـــائر « نابوبولاصر » وقوات ملك مادي « كياكساريس » . وكانت تلك نهـــاية نينوى وآشور ، وقد احتفظ التاريخ الاغريقي بذكرى الكارثة ، بيد انه حولها من الضحايا الحقيقيين الى آشور بانيبال الذي كان اشهر منهم بكثير ، فقد بقي خيال هذا الملك ماثلاً في اذهان القرون التاليـة ، ومن حوله مجد آشور يسرع نحو الظلام كالشمس الغاربة ...

٢ ـ حرق اكرويسوس

وهناك ملك شرقي آخر هيأ نفسه للموت في سعير النار ، وهو « اكرويسوس » (١) ملك ليديا . ويصف هيرودوتس في تاريخه كيف استولى الفرس بقيادة كورش على ساردیس ، عاصمة ليديا ، وكيف اخذوا اكرويسوس حياً ، وكيف أمر كورش بنصب محرقة كبيرة رفع عليها اكرويسوس مكبلاً بالسلاسل ومعه اربعة عشر شاباً ليدياً . ثم اشعلت النار ، غير ان كورش رق قلبه في

(١) آخر ملوك ليديا (مات ٥٤٦ ق. م.) ،وهو مضرب المثل بالثراء الطائل . (المترجم)

النهاية ، واذا برشاش من الماء ينصب فجأة على اللهب فيطفئها ، وينجو اكرويسوس من الحرق .

ولكنه من البعيد جداً ان يخطر ببال الفرس – وهم يبجلون النار ويعبدونها – ان يدنسوا ذلك العنصر المقدس بأرذل ضرب من ضروب النجاسة ، بجعلها تلامس الجثث الميتة . فعمل كهذا لن يكون لديهم الا من افظع الكفر . لأن النار في اعتقادهم هي الشكل الدنيوي للنور الالهي الخالد الازلي ، لا يحده زمان ولا مكان ، في حين ان الموت في رأيهم مصدر كل فساد ورجس . ولهذا كانوا يتخذون اشد الحيطة لحفظ طهارة النار من نجاسة الموت . واذا مات انسان او كلب في دار فيها نار مقدسة ، تحتم اخراج النار من الدار لتسع ليال في الشتاء ، او لشهر كامل في الصيف قبل ان تستعاد . واذا خالف احد القانون بارجاعه النار في اثناء المدة الحرام ، كان عقابه مئتي جلدة !.. اما حرق جثة في النار ، فتلك عندهم خطيئة هي افحش الخطايا ، لانها من ايعاز « أهريمان » او ابليس . وليس عنها اي تكفير وعقابها الموت . ولم يكن هذا القانون مجرد كلام لا غير : فقد كان يعدم ، حتى اوائل العصر الميلادي ، كل من ألقى بجيفة او براز البقر في النار ، بل كل من نفخ على النار بنفَسه . ولذلك فمن العسير ان نصدق ان ملكاً فارسياً يأمر اتباعه باقتراف فعلة يغضبون لها ويرون فيها اشنع ضرب من ضروب التدنيس . وهناك رواية اخرى لقصة اكرويسوس و كورش اصدق من الرواية السابقة من بعض الوجوه ، حفظها لنا شاهدان قديمان ، هما الشاعر الاغريقي

« باكيلايديس» — وكان مولده بعد الحادثة باربعين عاماً — وفنان اغريقي رسم المشهد على إناء خزفي حوالي نفس الوقت الذي ولد فيه الشاعر . ويقول باكيلايديس إن اكرويسوس ، عندما احتل الفرس مدينة سارديس ، لم يستطع ان يحتمل فكرة العبودية ، اذا ما وقع في يد خصمه . فأمر باقامة محرقة إزاء فناء القصر . ثم علاها مع زوجته وبناته ، وامر غلاماً باشعال الحطب . فانطلق منه لهيب متوهج ، بيد ان زفس اطفأه بمطر من السماء ، وحمل ابولو ذو السيف الذهبي الملك التقي وبناته الى ارض الخالدين التي وراء الريح الشمالية . وكذلك يصور رسام الاناء هذه المحرقة كفعل جاءه اكرويسوس طائعاً ، لا كعقاب انزله به الفاتح المنتصر . فهو يرينا الملك متربعاً على المحرقة وعلى رأسه اكليل من الغار ، وفي احدى يديه صولجان ، بينما هو يصب بالاخرى زيت التقدمة . وهناك خادم قد ادنى من كومة الحطب شيئين يقول البعض : إنهما مشعلان لايقاد النار . والبعض الآخر : إنهما وعاءان لرش الماء المقدس . وتبدو على الملك سيماء الوقار والرزانة ، فهو يظهر كأنه يقوم بطقس ديني ، لا كأنه يتحمل الموت عاراً .

ولهذا فبوسعنا ان نستنتج ان اكرويسوس ، عندما جارت عليه يد الزمان ، استعد لمواجهة الموت في سعير اللهب كملك او إله . فعلى هذا النحو صعد هرقل من الارض الى السماء ، وهو الذي ادعى ملوك ليديا الاقدمون النسب اليه : وعلى هذا النحو خلص «زمري» ملك اسرائيل من ايدي اعدائه : وعلى هذا النحو نجا شاماش شوموكين من انتقام اخيه : وعلى هذا النحو فاضت روح

آخر ملوك آشور بين انقاض عاصمته : وعلى هذا النحو ايضاً بعد سقوط ساردیس بست وستين سنة حاول هملقار ملك قرطاجة ، الانتصار في معركة خاسرة ، بموته موتاً خليقاً بالابطال .

ويروى ان سميراميس نفسها ملكة آشور الاسطورية حرقت نفسها في محرقة حزناً على موت حصان عزيز عليها . وبما ان هناك اسباباً قوية تحدو بنا الى اعتبار هذه الملكة شكلاً من اشكال إشطار او عشتاروت ، فان الاسطورة القائلة بموت سميراميس في النار من اجل غرامها تهيء لنا موازياً عجيباً لموت الملكة د يدونه على المحرقة بسبب حبها لاينياس كما تروي الأساطير ، وديدونه نفسها يلوح انها ليست الا تجسيداً آخر لهذه الإلهة الآسيوية العظمى . وعندما نقارن بين قصة حرق سمير اميس . وقصة حرق ديدونه . ونقارن كلتيها بالحوادث التاريخية لحرق الملوك الشرقيين ، لعلنا نستنتج انه كان هناك زمن لا بد فيه للملوك والملكات من ان يقبلوا على الموت في النار في ظروف معينة ، ربما عندما يموت زوج الملك او الملكة . ولن يتهم احد استنتاجاً كهذا بالمغالاة اذا ادرك ان عادة حرق الارامل بقيت في الهند في ايام حكم الانكليز حتى وقت متأخر ، ما زال البعض منا يذكره .

وفي اورشليم نفسها بقيت ذكريات حرق الملوك ، احياء او امواتاً ، حتى زمن اشعيا النبي الذي يقول : (إن المحرقة العظيمة مهيأة منذ القدم ، اجل ، انها للملك قد هيئت . لقد جعلها عميقة وعظيمة الاتساع ، كومتها نار وحطب كثير . وانفاس الرب تشعلها كسيل من الكبريت الملتهب .) ونحن نعلم ان « محارق

عظيمة » كانت تقام دائماً من اجل ملوك اليهود الماثتين ، وليس من قبيل الصدفة المجردة ان المكان الذي عينه اشعيا لمحرقة الملك هو عين البقعة في وادي« حنّوم » حيث كان الآباء يحرقون اطفالهم الابكار تقدمة لمولوخ « الملك » . ولم يتفق العلماء على مكان وادي حنّوم بالضبط ، غير انهم متفقون جميعاً على انه احد الشعاب الضيقة التي تحيط بالقدس او تقاطعها . ويقول بعض الثقات المعروفين انه الوادي الذي دعاه يوسيفوس « التيروبوبون » . واذا صدق هذا ، كان الوادي حيث يحرق الاطفال على المحارق هو الذي يشرف عليه الهيكل والقصر الملكي . ولعل تلك الضحايا الصغيرة كانت تموت من اجل الله والملك .

٣ — التطهير بالنار

هذه الحوادث والاساطير تكاد تثبت ان ملوك الشرق كانوا في ظروف معينة ينتحرون حرقاً عن عمد ، ولكن اي ظروف كانت هذه ؟. وماذا كانت نتائج هذا الفعل؟.. اذا كان الغرض منه النجاة من بطش الفاتح ، فلا ريب ان هناك طريقة للموت اسهل واقل الماً . اذن لا بد ان هناك سبباً خاصاً لاختيار الموت في النار . فموت هرقل حسب رواية الاساطير ، وموت هملقار حسب رواية التاريخ ، وصورة اكرويسوس متربعاً في ابهته على المحرقة يصب زيت التقدمة ، كلها تتفق في الاشارة الى ان حرق الاحياء كان يعد تضحية جلّى ، بل تأليهاً يرفع التضحية الى مصاف الخالدين ، اذ علينا الا ننسى ان كلا هملقار وهرقل كان يعبد بعد موته . وفضلاً عن ذلك ، كان الاقدمون يعتبرون النار مطهراً قوياً ، إذا

احسن استعماله ، استطاع ان يأتي على كل ما هو فانٍ في الانسان ، لكي لا يبقي منه الا الروح الالهية الخالدة . ولهذا لدينا قصص عن إلهات حاولن ان يمنحن الخلود لأطفال الملوك بحرقهم في النار في ظلام الليل ، غير ان محاولتهن الطيبة كانت تخفق ، لتدخل الاب او الام الجاهلين في الامر ، اذ ينظر احدهما في الغرفة فيرى الطفل بين ألسنة اللهيب ، فيرفع صوته بالصراخ ويزعج الالهة في طقوسها السحرية . وقد قيلت هذه القصة عن ايزيس في دار ملك بيبلوس ، وعن ديميتر في دار ملك إليوسيس ، وعن تيتيس في دار زوجها البشري بيليوس . وبطريقة تخالف هذه بعض الشيء ادّعت الساحرة « ميديا » أنها تستطيع ارجاع الصِبَى الى الشيوخ بغليهم في مَرَق جهنمي في قدرها السحري !.. وعندما ذبح تانتالوس بوحشية فظيعة ابنه بيلوبس ، وقدمه طعاماً في وليمة للآلهة ، شفق عليه الآلهة وغمروا بقاياه المقطعة في اناء يغلي ، الى ان تبخر ما فيه وطلع منه شاباً حياً ...

قال يمبليخوس : (إن النار تفني كل ما كان مادياً في الضحايا ، وتطهر كل ما اقترب منها ، بان تطلقه من قيود المـادة : فتجعله بطهارتها الطبيعية اهلاً للاتصال بالآلهة . وهكذا ايضاً تطلقنا من قيود الفساد والعفن ، فتجعلنا في شبه الآلهة ، وتؤهلنا لصداقتهم ، وتحوّل طبيعتنا المادية الى طبيعة غير مادية .) وهذا يوضح لنـا لماذا كان الملوك والعوام الذين يطمحون الى الألوهية او يدّعونها ، يختارون الموت بالنار . وقـد قال الدجال بريغرينوس ، الذي وضع حداً لحياة كلها كذب وشعوذة في سعير النيران في اوليمبيا ،

إنه سيتحول بعد الموت الى روح تحرس الناس من مخاوف الليل . ولا ريب – كما قال لوقيان – أنه كان هنـــاك حمقى كثيرون يصدقونه . وفي احدى الروايات ان«امبيدوكليس»الفيلسوف الصقلي الذي تظاهر بالألوهية في اثناء حياته ، القى بنفسه في فوهة البركان « إتنا » لكي يبرهن على الوهيته . وليس في الرواية ما هو صعب التصديق . فان الفيلسوف وقد اختل ذهنه بشهوته الملحة في الشهرة، ربما فعل ما فعله في الزمن الغابر الفقراء الهنود او المشعوذ الوقح «بيريغرينوس »، او ما يفعله الفلاحون الروس اليوم، او البوذيون في الصين : فليس هناك حد مهما شط في التطرف لن يدفع التعصب او الغرور – او مزيج من الاثنين معاً – ضحاياه اليه .

٤ – بعث طيلون

ربما كان الناس بعد حرق صندان – مثل ملكارث – يقومون بمراسيم يحتفلون فيها ببعثه او يقظته ، اشارة الى ان الحياة الالهية لم تنقرض، بل إنما اتخذت لنفسها شكلاً اكثر جدة ، واشد نقاوة. ولكن حسب معرفتي ، ليست لدينا ادلة مباشرة على هذا البعث ، غير ان هناك قصة عن بطل من ابطال ليديا يدعى « طيلون » تقول انه صرع، ثم اعيد الى الحياة . ومجرى القصة كما يلي :

(كان طيلون او طيلوس، احد ابناء « الارض » . وبينما كان ذات يوم يمشي على ضفاف نهر هرموس لدغه ثعبان وقضى عـــلى حياته . فلجأت اخته « مويره » الى جان يدعى « دماسن » فهرع هذا الى الثعبان وقتله . غير ان زوج الثعبان اقتطفت نبتـــة هي « زهرة زفس » من احد الاحراش ، وحملتها في فمها ووضعتها على

شفتي الثعبان الميت ، فعاد الى الحياة في الحــال . فاسترشدت « مويره » بذلك ، واعادت اخاها طيلون الى الحياة بلمس شفتيه بنفس تلك النبتة) .

ومثل هذا الحادث يتكرر في اقاصيص شعبية كثيرة.والثعابين كثيراً ما تعزى اليها معرفة النباتات التي تسترجع الحياة . غير انه يلوح لنا ان طيلون لم يكن بطل من ابطال الحكايات الخياليـة . فقد كانت له علاقة وثيقة « بساردیس» لان صورته مصكوكة على نقود هذة المدينة مع صورة منقذه « دماسن » او « ماسيئس » ، والثعبان الميت ، والغصن الذي يهب الحياة . كما ان له ايضاً عـلاقة متعددة النواحي بالاسرة المالكة في ليديا . فقد تزوجت ابنتـه الملك « كوتيس » وهو اقدم من حكم البلاد، وعين احــد نسله وصياً في اثناء نبي الملك « ميليس » .

وهناك من يعتقد ان قصة موته وبعثه كانت تمثل في احتفـال يرمز الى عودة الحياة الى النبات في الربيع . ومهما يكن من امر ، فان مهرجاناً يدعى « عيد الزهرة الذهبية » كان يقام تمجيـداً لبرسيفوني (١) في ساردیس، وربما كان ذلك في احد اشهر الربيع،

(١) ابنة ديميتر الهة الزرع ، فر بها بلوتو (اله العالم السفلي) باتفاق مع زفس ، (وهذا ما يرمز الى تزاوج الالوهية بالزرع) ، فهامت ديميتر على وجه الارض باحثة عن ابنتها الى ان عرفت مقرها . فلما حاولت استرجاعها دون جدوى ، ضربت الارض بالمحل والمجاعة ، الى ان ارضاها زفس بان امر بعودة برسيفوني الى امها لمدة ثلثي السنة ، على ان تعود الى بلوتو في الثلث الآخر . وكان يرى اتباعها في هذه الاسطورة رمزاً للحياة بعد الموت ، بناء على عودة برسيفوني الى العالم الارضي بعد اختفائها . وكذلك بناء على فكرة البذرة التي يجب ان تموت وتعفن قبل ان تنبثق منها الحياة الجديدة . (المترجم)

ومن المحتمل جداً انهم كانوا يمثلون بعث البطل ، وبعث الالهة معاً حينئذ . والزهرة الذهبية في هذا المهرجان تكون « زهرة زفس » المذكورة في الاسطورة ، ولعلها زهرة الزعفران الرائعة الصفرة التي تسبغها الطبيعة بسخاء على بعض الاماكن في الشرق . غير ان الصورة على نقود سارديس اكثر شبهاً بالغصن منها بالنّوار ، فهي اشبه « بغصن ذهبي » منها « بزهرة ذهبية » .

الفصل الثامن

الدين البركاني

٢ – حرق الالهة

اذن يظهر ان عادة حرق الاله ، صورة او في شخص انسان يمثله ، كانت متبعة على الاقل لدى قومين من اقوام آسيا الغربية ، هما الفينيقيون والحثيون . ولا يمكننا ان نبت فيما اذا نشأت هذه العادة عند كلا القومين على حدة ، او اذا اتخذها القوم الواحد عن الآخر . كما ان الاسباب التي دفعتهم الى اقامة هذا الطقس ، الذي نرى فيه الغرابة والوحشية ، ما زالت غامضة . وقد وجدنا في بحثنا السابق ، ما يحدو بنا الى الظن بان هذه العادة كانت مبنية على فكرة قوى النار التطهيرية : فهي اذ تأتي على العناصر التي لا بد ان تفسد وتفنى في الانسان ، تجعل اهلاً للاتحاد بما هو إلهي ولا يقبل الفناء . والاناس الذين كانوا يصنعون آلهتهم في شبه انفسهم ، ويتصورون ان الآلهة معرضة لما هم معرضون له من انحلال وموت من الطبيعي ان يظنوا ان النار ستغدق على الآلهة ما تغدق على البشر حسب اعتقادهم ، فيحسبوا انها تطهرهم من رجس الفساد والانحلال ، تغربل الفاني من الخالد في تكوينهم ، وتضفي عليهم شباباً ازلياً . ولهذا قد تنشأ عادة تعريض الآلهة انفسهم ، او من كان اعظمهم شأناً ، لأجيج النيران ، بغية انعاش وتجديد قوى الخلق والابداع ، لأن كل شيء في الحياة يعتمد على حفظ هذه القوى . غير ان هذا

الطقس الجليل قد يبدو في مظهر آخر المتأمل الجاهل الذي يقعده فهمه الغليظ عن ادراك الدوافع الانسانية في هذا العمل . فاذا كان من الاتقياء دعاه كفراً ، واذا كان من المتشككين دعاه سخافة . فلعله يقول : (انه لمن الخطيئـــة والحمق ان يحرق المرء الاله الذي يعبده . فاذا نجح في محاولته ، قتله وفقد خدماته الثمينة التي كان بامكانه ان يستفيد منها. واذا لم ينجح فقد اساء اليه اساءة لا تغتفر، ولا بد ان ينزل به الاله اشد الانتقام ان عاجلًا او آجلا .)

اما الذي يعبد الاله(اذا كان على شيء كثير من اللطف ورحابة الصدر) ، فسوف يصغي الى مثل هـــذا القول مبتسماً ابتسامة المتسامح الذي يرثي لجهل هذا المنتقد وبلادته . ولعله يقول مجيباً : (لقد شططتَ في الخطأ حين ظننت اننا نرجو ان نقتل الاله الذي نعبده او نحاول ذلك . فمثل هذا الخاطر نمجّ نحن له كما تمج له انت . ان غايتنا هي بالضبط عكس ما عزوتَه الينا . معاذ الله ان نحاول ان نقضي على الاله !.. إنما نحن نبغي ان نجعله يحيا الى الابد، ونضعه بعيداً عن يد الانحلال والفناء التي لا ينجو من قبضتها كل ما تحت السماء . إنه في النار لا يموت . لا، ابداً !.. بل ان كل ما كان قابلًا للفساد والموت فيه تلتهمه اللهب ، وكل مـا كان خالداً وغير قابل للفساد فيه يبقى اشد نقـــاوة واكثر قوة ، لخلاصه من عدوى الشوائب العالقة به . فتلك الكومة الصغيرة من الرماد التي تراهـا هناك ليست إلهنا : إن هي الا الجلد الذي نضاه عنه ، والقشرة التي خلَعَها عن نفسه . اما هو فبعيد عنا ، في سحب السماء ، في احشاء الارض ، في المياه الجارية ، في الاشجار والازهـــار ، في القمح

والخمر . اننا لا نراه وجهاً لوجه ، غير انه في كل سنة يظهر لنا حياته الالهية من جديد في نوار الربيع وفواكه الخريف . في الخبز نأكل من جسده المكسور ، وفي بنت الكرمة نشرب من دمه المراق .)

٢ – ارض ليديا المحروقة

مقاطعة ليديا في آسيا الصغرى منطقة بركانية سماها الاغريق بالارض المحترقة ، لمظهرها العجيب . وهي تقع الى الشرق من ساردیس ، في الوادي الأعلى من نهر هرموس ، وتبلغ مساحتها خمسين ميلاً في اربعين . وقد وصفها «سترابون » بانها بلد خلت من الاشجار جميعاً الا الكرمة ، وخمرها لم تفقها اي الخمور المشهورة في العالم القديم . وقد كان سطح السهول فيها كالرماد ، وتتألف فيها التلال من حجر اسود وكأنها قد اشتوت بالنار . وقد قال بعض الناس ان مكان معركة « طيفون » (١) مع الآلهة كان في هذه « الارض السوداء » ، وظنوا انها إنما احترقت بفعل الصواعق التي قذفت بها الآلهة من السماء هذا الوحش الكريه . غير ان سترابون ، بتفكيره الفلسفي ، قال ان النيران التي سببت هذا الدمار صدرت من تحت الارض لا من السماء . وأشار الى ثلاث

---

(١) طيفون في الاساطير الاغريقية وحش رهيب المنظر له مئة رأس تنين . وفي مصارعته الآلهة تغلب عليه زفس والقى به في البحر . وهناك روايات تقول انه مسجون في كيليكيا ، او تحت بركان اتنا ، او المناطق البركانية الاخرى التي يسبب انفجاراتها . فهو لذلك يمثل القوى البركانية . ويعد ايضاً ابا الاعاصير المريعة التي تسبب الفيضانات والهلاك .

(المترجم)

فجوات واسعة في الارض ، تبعد الواحـــدة عن الاخرى حوالي اربعة اميال ، كل منبا في تل من حمم اللافا ، اعتقد انها كانت في يوم من الايام مواد منصهرة لفظتها البراكين . وقـــد دعم العلم الحديث ملاحظته ونظريته : فالبراكين الخامدة الثلاثة التي اشار اليها ، ما زالت معالم بارزة في المكان . وكل منها مخروط اسودمن حجر محروق، وحممٍ خامدة ورماد ، جوانبه شديدة الانحدار ، والفتحة في اعلاه كثيرة العمق . وقد انحدر من كل منهـا سيل من اللافا السوداء منفجراً من اسفل المخروط، ومندفعاً في الوادي حتى ضفة هرموس . وتتبع الجداول القاتمة في مجراها مرتفعات الوديان ومنخفضاتها ، وتحيط بمياهها الداكنة اراضٍ غنية الخضرة . فكأن الوديان ، وقد تفلّح سطحها محدثاً اغرب الاشكال ، امواج بحر ساطتها الاعاصير ، ثم تحجرت على حين فجأة . وهـذه المخروطات الحجرية وانهر اللافا السوداء هي من الوجهـــة الجيولوجية حديثة النشوء . غير ان في هذه المقاطعة نفسها ما ينيف على ثلاثين مخروطاً بركانياً آخر ، اقدم عهداً بكثير ، بدليل اشكالها الملطفة الحدة ، وجوانبها الملساء ، ومـــا يكسوها من خضرة مزروعة . بل ان الكروم تكسو بعضها حتى القمة . فما زالت التربة البركانية صالحة لزراعة الدالية كما كانت في القدم . وقد لحظ الاقدمون العلاقة بين الاثنتين ، وقـــارن سترابو دوالي « الارض السوداء » بكروم « كاتانيا » التي يخصبها رماد جبل « إتنا » ، وقال ان بعض ذوي الفطنة عللوا ميلاد إله الخمر ديونيسوس من النار بإنه اسطورة ترمز الى أن العناقيد إنما ولدتها البراكين .

٣ - إله الزلازل

غير ان سكان هذه الارجاء كانت تذكّرهم بالنيران الهاجعة اشارات اخرى ليست لها لذة عصير عنبها السخي : فقد كانت « الارض المحترقة » والاراضي التي تليها جنوباً بما في ذلك وادي نهر « مياندر » برمته ، عرضة لزلازل عنيفة كثيرة . وكانت الارض غير متماسكة التربة ، تملأهــا الأملاح ، وتقوّضها النار والمياه التي تحتها . وكانت اشد المدن تعرضاً للزلازل هنــاك فيلادلفيا حيث كانت الهزات مستمرة ، فترتجف البيوت وتتداعى الجدران وتهوي ، ويقضي السكان القلائل حياتهم وهم يرمّمون ما انهدم ، وينصبون الدعائم لمنازلهم التي تهددهم دائماً بالسقوط على من فيها . وقد كان لهم من الحكمة مــا جعلهم يعيشون متباعدين في المزارع . عــلى انه من العجيب ، كما يقول سترابون ، ان مدينة كتلك كان يسكنها الناس ، واعجب من ذلك انه كان هناك من يبني مثل تلك المدينة . غير ان الزلازل ، بتقدير حكيم من الله عز وجل ، كلما هزت اسس منازلهم ، زادت اسس ايمانهم قوة . ففي مدينة « أباميا » التي كثيراً مــا اصابها الخراب ، كان الناس يصلون الى « بوسايدون » إله الزلازل بحرارة فائقة . وهنــاك جزيرة « سانتورين » في الارخبيل اليوناني ، وهي مــا زالت منذ آلاف السنين مسرحاً مريعاً للقوى البركانية . وقد حدث مرة ان مياه الخليج جعلت تغلي وتلتهب لأيام اربعة ، واذا جزيرة مكونة من مواد حــارة لدرجة الاحمرار ترتفع رويداً فوق الامواج ، كأنما هناك آلات ترفعها . وكانت امــارة البحر حينئذ في ايدي

اهل جزيرة رودس . فعندما استقر غليان الانفجار ولهيبه نزلوا الى الجزيرة وشيدوا هيكلاً « لبوسايدون المنشىء او المنقذ » ، وهذه صفة اطلقوها عليه كإشارة اليه بألا يهز الارض اكثر مما ينبغي . وكان الناس في اماكن اخرى كثيرة يقدمون الضحايا لبوسايدون « المنشىء » ، أملاً في ان يكون صالحاً مثل اسمه ، فلا يطوّح ببيوتهم فوق رؤوسهم .

وهناك مثل آخر على محاولة الاغريق تهدئة الروح المضطربة التي تحت الارض يحسن ذكره ، لأن المتوحشين ما زالوا يقومون بمثل هذه المحاولة في اثناء الزلازل . فقد اتفق ذات مرة . وقد نزل الجيش الاسبرطي الى الميدان بقيادة الملك ، ان اهتزت الارض تحت اقدامهم بفعل زلزال . وكان الوقت مساء والملك يتناول طعامه مع قواده . غير انهم ما كادوا يشعرون بالهزة ، حتى قاموا من عشائهم بسرعة خاطر عجيبة ، وراحوا يرتلون ترتيلة محبوبة للاله بوسايدون . فانطلقت حناجر الجنود الذين خارج الخيمة بغناء هذا اللحن ، وسرعان ما كان الجيش باجمعه يرتل الترتيلة المقدسة . ولم يكن الغرض من هذا التعظيم والتمجيد للاله الذي يزلزل الدنيا الا الطلب اليه ان يوقف الزلزال . فقد كانوا يظنون انهم يستطيعون ايقاف تلك الهزات العنيفة بغناء الجنود سوية .

وهذه النظرية ما زالت رائجة بين كثير من الاقوام البربرية . فسكان « تيمور » في جزائر الهند الشرقية يقولون ان الارض مستقرة على كتف عملاق جبار ، فاذا ما تعب من حملها على

الكتف الواحدة حولها الى الأخرى ، فجعلها تهتز . حينئذ يصرخون جميعاً باعلى اصواتهم لكي يعلموه ان الارض ما زالت مسكونة ، والا فانهم يخشون انـــه قـد يضيق ذرعاً بعبئه فيلقى بـــه في البحر .

وهناك قبيلة « كوينبو » ، من الهنود الحمر الذين يقطنون على الضفة اليسرى لنهر « اوكابالي » ، ويعزون هذه الأضطرابات الى الخالق الذي يسكن عادة في السماء ، ولكنه بين الحين والحين ينزل الى الارض لكي يرى اذا كان ما صنعت يداه مــــا زال باقياً . وينتج عن نزوله زلزال ، فاذا مـــا اهتزت الارض خرجوا من اكواخهم مهرولـــين يلوحون ما استطاعوا بايديهم ويصيحون ، كأنهم يجيبون على سؤال ما ، قائلين : (لحظة، لحظة !.. انا هنا يا ابي ، انا هنا !..) ولا ريب ان هدفهم من ذلك هو ان يطمئنوا اباهم السماوي بأنهم ما زالوا في قيد الحياة ، وان له ان يعود الى منزله في الاعالي مرتاح البال. وهم لا يتذكرون خالقهم ابداً ، ولا يأبهون له الا عند الزلازل !..

وفي افريقيا كانت قبيلة « أتونغا » قرب بحيرة « نياسا » تعتقد ان الزلازل ليست الا صوت الله يرتفع في سؤاله عما اذا كان عبيده ما زالوا موجودين . ولذا فكلما سمعوا قرقعة تحت الارض رفعـــوا عقيرتهم بالجواب : (نعم نعم !) ويذهب بعضهم الى الاجران التي يدقون فيهـا الحبوب ويضربونها بالمطارق . وكانوا يعتقدون ان كل من لم يجب على النداء الالهي هكذا مـــات في الحـال .

وفي بعض انحاء جزيرة « سليبس » عندما تهتز الارض يقال ان جميع سكان القرية يندفعون الى خارج بيوتهم وينتفون الحشائش بحفناتهم لكي يجلبوا انتباه « روح الارض » ، لانه عندما يشعر ان شعره يجتث من اصله بهذا العنف ، يذكره الالم بان هناك اناساً فوق الارض . ولذلك كان الاهالي في جزيرة « ساموا » في اثناء هزات الزلازل ينطرحون على وجوههم ويعضون الارض ، ويصرخون صرخات جنونية لاله الزلازل « مافووي » ، راجين منه ان يتوقف لئلا تتحطم الدنيا . وكانوا يعزّون انفسهم بان ليس لمافووي إلا يد واحدة قائلين : (ولو كانت له يدان اثنتان ، ما افظع ما كان يهز الارض !..)

وفي جزائر الفيليبين يعتقد اقوام « باغوبو » بأن الارض محمولة على عمود كبير ، ولكن هناك ثعباناً ضخماً يحاول انزالها عنه .فاذا ما هز الثعبان العمود ارتجفت الارض . حينئذ يضرب الناس كلابهم لكي تنوح ، لأن الثعبان يخشى نواح الحيوانات فيتوقف عن هز العمود ، ولذلك فان نواح الكلاب يسمع صادراً من كل دار في قرى الباغوبو ما دام الزلزال مستمراً .

وكان الهنود الحمر في بيرو يظنون ان الزلازل تشير الى عطش الآلهة ، ولذلك كانوا يصبون الماء على الارض . وفي « اشانتي » كان يؤمر بعد كل زلزال باعدام عدة اناس ، يقدمون ضحية لاله الزلازل « ساسابنسم » أملاً في تسكين ثائرة قسوته مدة من الزمن . واذا سقطت بعض البيوت او تداعت بسبب الزلزال ، رشوا عليها دماً بشرياً قبل اعادة بنائها . وعندما سقط مرة جناح من منزل

الملك في « كوماسي » بفعل هزة ارضية ، ذبحت خمسون فتــاة صبية وجبل الطين الذي استعمل في الترميم بدمائهن .

وللزلازل في « نياس » اثر طيب في اخـــلاق السكان . ففي اعتقادهم ان الزلازل من فعل « باتوبنادو » الذي يبغي هدم الدنيا لانتشار الرذيلة والظلم بين الناس . ولذلك يجتمعون ويصنعون تمثالاً كبيراً من جذع شجرة ، ثم يقدمون العطايا ويعترفون بخطــاياهم ويؤالون على انفسهم حسن السيرة في المستقبل ويطلبون الرحمة . واذا مادت الارض بهم رموا شيئاً من الذهب في الشق . ولكن طالما يزول الخطر ينسون عهودهم الجميلة ويعودون الى سيرتهم .

ولنا ان نخمّن ان اهالي البلاد الاغريقية التي قاست الامرين من الزلازل مثل « آكايا » والساحل الغربي لآسيا الصغرى كانوا يعبدون « بوسايدون » كإله للزلازل، وإله البحر معاً . فالزلازل في الغالب ترافقه موجة عارمة طاغية ، تتدحرج من البحر كالجبل وتغرق مساحات شاسعةمن الاراضي . بل انه يقال في بيرو وشيلي — وكثيراً ما تكتسحهما الامواج والزلازل — ان الناس يخشون شر الموجة اكثر من الزلزال . ولقد عانى الاغريق كثــيراً من مجموع هاتين الطامتين — كأنما البر والبحر يتآمران على حيــاة الانسان واعماله . فعلى هدا النحو تدمرت بلدة « هيلـكي » على ساحل « آكايا » وهلك من فيها من سكان ، في ليلة من ليــالي الشتاء ، اذ طغت عليها المياه المتلاطمة . فنسب الناس تدميرها الى غضب بوسايدون ، فليس اسهل من ان يتصور قوم تحــل بهم تكراراً هذه النائبـــة المزدوجة ان إله الزلازل المريع هو إله

البحر بعينه .

٤ ـ عبادة الابخرة السامة والينابيع الحارة

بيد ان ان الانفجارات والزلازل ، وان تكن اكثر المظاهر الطبيعية هولاً في المناطق البركانية ، ليست هي الوحيدة التي تركت اثراً في دين السكان . فقد كان للابخرة الارضية السامة والينابيع الحارة عبّاد يؤمنون بقواها ، وهذه تكثر عادة في المناطق البركانية . فكان الاقدمون اذا رأوا الابخرة القتالة تصدر من الارض قالوا ان تلك المنافذ التي ينطلق منها البخار هي مداخل الجحيم . فكان الاغريق يدعونها « منازل بلوتو » (إله الجحيم) ـ بلوتونيا ومثلت هذه الابخرة في ايطاليا بإلهة سميت « مفيتيس » كانت تعبد في اجزاء مختلفة من البلاد . وقد شيد لها البعض هيكلاً في وادي « أمسانكتس » المشهور ، حيث كانت النفثات ، التي اعتبرها القوم انفاس بلوتو نفسه ، قتالة جداً : فكان كل من يضع قدمه في ذلك المكان يموت في الحال ...

ولا ريب في ان اهم الاسباب التي خلقت شهرة هيرابوليس كمدينة مقدسة ، هو ما فيها من ينابيع حارة وأبخرة ارضية سامة . فقد عرف الاقدمون مزايا الشفاء التي تحويها المياه المعدنية والعيون الحارة ، ولكن ليتنا نستطيع ان نكتشف الاسباب التي أبعدت رويداً رويداً عنصر الايمان بالاوهام عن استعمال هذه المياه ، فحولت كثيراً من المراكز القديمة للدين البركاني الى الحمامات الطبية التي نعرفها في عصرنا هذا .

وفي سوريا ما زالت النساء العاقرات يترددن على الينابيع

الحارة لكي يحصلن على النسل من ولي او جني الماء . فمثلاً ، تواهن يذهبن الى الينابيع الحـــارة المشهورة الموجودة في ارض موآب (شرقي البحر الميت مباشرة) ، فهي تتفجر من بـــين الصخور وتجري في أخدود كثير النبت الى البحر الميت . وكانت هـــذه الينابيع تدعى في الزمن السالف باسم اغريقي « كاليرهووي » ، اي « الجميلة الجريان » . وعندما دنا هيرودس من اجله بسبب علل كثيرة التعقيد – قال اليهود المتدينون إنها من انتقام الله – حملوه الى هذه المياه عبثاً آملين في ان يوقفوا سير المرض القتال او يخففوا من حدته . غير ان المياه الشافية لم تلطف من اله ، وعاد الى اريحا ليموت فيها .

تتفجر هذه الجداول الحارة في اماكن شتى من جوانب شعب عميق عجيب الجمال ، فتتلاقى وتكوّن سيلاً (١) سريع الجريان فاتر المياه يندفع الى اعماق الوادي الضيق ، قاذفاً بنفسه وهو يزبد فوق الصخور ، في ظلال كثيفة من أشجار الطرفاء ومجاميع القصب ، وقد اكتست الحجارة على الجوانب بحفاف زمرّدية من النبت الكثيف . وتتساقط مياه احد الينابيع من رف صخري شاهق على وجه صخور اصبحت براقة الصفّرة بسبب الماء الكبريتي . والقمم السامقة التي تحيط بهذا الشعب الضيق قوية التقاطيع ، شديدة الفعل في النفس ، لبروز خطوطها وتعدد ألوانها التي تتراوح بين الحجر الرمـــلي الاحمر ، والحجر الكلسي الابيض والاصفر ، وبين البازلت الاسود . وتصدر المياه عن خط التقاء الحجر الرملي بالحجر الكلسي ،

---

(١) من الواضح ان المؤلف يقصد نهر الموجب . (المترجم)

وحرارتها شديدة . وبوسع المرء ان يرى سحب البخار تتصاعد من فجوات كبيرة في جوانب الجبل ويسمع هدير المياه الجارية . ويكاد بطن الوادي يختنق بما فيه من نبات كثيف ملتف. فالمكان اوطأ من سطح البحر بكثير ، ويكاد ان يكون افريقياً في نباتاته ومناخه . فيه ترى الاقصاب الكثيفة ترتجف وتهتز في كل نسمة عابرة : ترى الدفلة تتألق باوراقها القاتمة الخضرة وزهرها الوردي الجميل: ترى اشجار النخيل تتهادى قممها حيثما تجري الينابيع الحارة. وتكسو الزهور الارض بالوانها الرائعة كالسجاد . والزهور البرية من كل ضرب ولون ، ارجوانية او وردية او براقة الصفرة ، تنتشر في ارجاء المكان ، ولبعضها سيقان طولها ثلاث اقدام مثقلة بالنّور من رأسها حتى الارض . وفوق هذه النباتات الكثيفة المتباينة تحوم فراشات كبيرة الوانها تتوهج . واذ ترسل النظر الى اعماق الشِعب ترى بين جنبيه تلال فلسطين البنفسجية من بعيد كأنها في اطار من جدران من البازلت الاسود من ناحية ، ومن الحجر الرملي الأحمر البراق من الناحية الاخرى .

وفي شهري نيسان وايار من كل سنة يذهب العرب زرافات ووحداناً الى هذا الوادي لكي يستفيدوا من مياهه . فيبتنون لانفسهم اكواخاً من الاقصاب التي يعمر بها المكان . ويستحمون في الماء الحار والبخار يتصاعد منه ، او يعرّضون اجسادهم لرشاشه اذ يتدفق بقوة من ثغرة في الصخور . غير انهم قبل ان يبدأوا بذلك ، سواء أكانوا مسيحيين ام مسلمين ، يتقربون من « ولي » او « رَصَد » المكان بتضحية خروف او كبش قرب المنبع ،

وتلوين الماء بدمه الاحمر ، ثم يأخذون في الاستحمام . وهم يدعون هذه الينابيع حمامات سليمان : اذ تقول الاساطير ان سليمان الحكيم كان قد جعلها مكاناً لاستحمامه ، فأمر الجن الا يسمحوا للنـــار بالخمود ابداً لكي تبقى المياه دائمـاً ساخنة . وما زال الجن يطيعون امره حتى اليوم ، غير انهم يتقاعسون احياناً فيقل المـــاء ويبرد . فاذا ما لحظ المستحمون ذلك قالوا : (يا سليمان ، هات الحطب الاخضر والحطب اليابس !..) وسرعان ما يشتد الماء ويتصاعد منه البخار . اما المرضى فيخبرون الولي ، او الشيخ الذي يسكن المياه غير منظور ، عن عللهم وآلامهم . ويشيرون الى بقع المرض المعينة في ابدانهم : فلعلها في الظهر او الرأس او الساقين . وكلما انخفضت حرارة الماء صاحوا قائلين : (برد الماء يا شيخ ، برد الماء !..) فيحرك الشيخ الكريم النار ويغلي المـاء من جديد . ولكن اذا بقي النبع بارداً رغماً عن هذه الطلبات والأدعية ، قالوا ان الشيخ قد ذهب للحج ، ورجوه صائحين ان يسرع في عودته . والمسلمات العاقرات ايضاً يزرن هذه الينابيع الحارة بغية الحصول على الاولاد ، او يذهبن الى ينابيع مثلها قرب الكرك .

هكذا نرى ان توقير رجال العرب ونسائهم للشيخ سليمان في ينابيعه الحارة يعلل لنا عبادة رجال الاغريق ونسائهم لمثلهـا من الينابيع التي نسبوها الى هرقل . وبما ان هرقل كان المثل الاعلى في القوة والرجولة ، فلعل الكثير من عبـــاده اعتبروه اباً لهم ، وحجت الزوجـــات الاغريقيات الى مياهه املاً في تحقيق شهوة

قلوبهن . (١)

---

(١) لم اتحدث كثيراً في هذا البحث عن الشام وفلسطين ، وهما بلدا ادونيس وملكارث ، غير انهما « مملوءتان بمعالم بركانية » . وكثيراً ما انزلت الهزات الارضية في مساحات واسعة فيها خسائر فادحة في الارواح ، وهدمت فيها مدناً عديدة هدماً مريعاً . فالتاريخ يذكر باستمرار الدمار الذي سببته الزلازل في صيدا وصور وبيروت واللاذقية وانطاكيا ، وجزيرة قبرص . وتكشف الاراضي المحيطة بالبحر الميت في بعض البقاع عن طبقات «من الكبريت والقير ، مكونة ركاماً سطحياً ، يقول البعض انها من اصل بركاني .» (السير شارل لايل : « اصول الجيولوجيا » ج ١ ، ص ٥٩٢ الخ) . ويقال ان انطاكيا في ايام الامبراطور يوستين سقطت باجمها انقاضاً بفعل زلزال مريع ، قضى على ثلاثة الف نسمة . وقد علل البعض دمار سادوم وعمورة (سفر التكوين اصحاح ١٩ ، عدد ٢٤ — ٢٨) تعليلا معقولا بانه نتيجة زلزلة اطلقت كميات كبيرة من البترول والغازات الملتهبة . (المؤلف)

الفصل التاسع

طقوس ادونيس

لقد تناولنا بالبحث حتى الآن اسطورة ادونيس والاقاصيص التي تربطه ببيبلوس وبافوس ، فتوصل البحث بنا الى هذه النتيجة ، وهي ان ادونيس ، السيد الالهي للمدينة عند الاقوام السامية ، كان يمثله في الغالب ملوك كهنة ، او اناس آخرون من الاسرة المالكة . وان هؤلاء الممثلين البشريين كانوا يضحون بانفسهم - إما احياناً ،او في فترات منتظمة - بصفتهم آلهة . ووجدنا ايضاً ان في آسيا الصغرى تقاليد واقاصيص ونصباً معينة ما زالت فيها آثار عادة مماثلة لهذه . ويظهر ان هذه العادة الغليظة على مر الزمن تلطفت من اوجه متباينة ، كأن تستبدل الضحية البشرية بتمثال او حيوان ، او كأن يسمح للضحية بالنجاة ، بعد القيام بتضحية صورية فقط . وقد استمددنا الادلة على ذلك من إشارات متباعدة شتى ، بعضها كثير الغموض والابهام . ولذا فهي أدلة جزئية غير ثابتة ، ولا بد لما يبنى عليها من نتائج ان يشاطرها في ضعف الحجة . وحيثما كانت سجلات التاريخ ناقصة - كما هي في هذا الطرف من موضوعنا - كان لا ندحة من ادخال عنصر الافتراض والتخمين بكثرة في محاولتنا جمع الحقائق المبعثرة وتأويلها . واما مبلغ الصحة في التأويلات التي قدمتها هنا ، فاني اتركه لتقدير الباحثين

في المستقبل .

ان المرء ليتنفس الصعداء حين ينتقل من اعماق الماضي المظلمة ، حيث كنا نبحث عن طريقنا بمصباح ضئيل يهوّه لنا التاريخ ، الى العصور الكلاسيكية المتأخرة ، التي اغدق عليها الكتاب الاغريق المعاصرون لها ضوء ذكائهم النيّر . ونحن نكاد نكون مدينين لهم بكل ما نعرف عن طقوس ادونيس معرفة ثابتة . فالساميون الذين مارسوا هذه الطقوس لم يقولوا عنها الا النزر اليسير — او ، مهما يكن من امر ، فانه لم يصلنا مما قالوه عنها الا النزر اليسير . ولهذا السبب فان ما يلي من وصف للمراسيم ، مستقى في الدرجة الاولى من الكتّاب الاغريق الذين شاهدوا باعينهم ما وصفوه باقلامهم . وهو ينتسب الى عصور كان فيها تطور الشعور والرفق الانساني قد اخذ من حدة بعض مظاهر العبادة هذه .

في اعياد ادونيس التي كانت تقام في آسيا الصغرى الغربية، والبلاد الاغريقية ، كان النـاس يندبون موت الاله كل سنة ، وينوحون عليه نواحاً مؤلماً ، ولا سيما النساء . كانوا يحملون تماثيله ، في شكل جثمان ميت ، ويشيعونها للدفن ، ثم يلقون بها في البحر او الانهر . وفي بعض الاماكن يحتفلون ببعثه في اليوم التالي . ولكن الاحتفالات بموته وبعثه كانت تتباين ، في الامكنة المختلفة، في شكلها وموعدها . ففي الاسكندرية كان يوضع تمثال افروديتي وتمثال ادونيس على مقعدين ، وبقربهما فواكه ناضجة من كل لون ، وحلوى ونباتات في أصص ، وتعقد عرائش خضراء التفت في ثناياها فروع الينسون . فكانوا يحتفلون بزواج العاشقين في اليوم الاول،

وغداة اليوم التالي تخرج النساء ملفّعات بثياب الحـــداد ، بغدائر منثورة ونهود عارية ، ويحملن تمثـــال ادونيس الميت الى شاطىء البحر ويسلمنه الى الامواج . غير ان اساهن لم يكن بدون امل : فقد كن ينشدن بان الفقيـــد سيعود مرة ثانية . وليس هناك نص صريح على موعد هذا العيد الاسكندري ، غير ان ذكر الفواكه الناضجة تحدو الى الاعتقاد بانه كان في آخر الصيف . وفي الهيكل الفينيقي العظيم لعشتاروت في بيبلوس كان الناس يندبون موت ادونيس كل سنة بالبكاء والنواح وقرع الصدور ، مع ولولة انغام الناي . بيد انهم كانوا يعتقدون انه يعود الى الحياة في اليوم التالي ويصعد الى السماء امام اعين عبّاده . واذ يبقى المؤمنون وحدهم على الارض بعد صعوده يحزنون على فراقه ، ويحلقون رؤوسهم كما كان يفعل المصريون عند موت الثور المقدس« آبيس ». وكان على النساء اللواتي لا يردن ان يضحين بخصال شعرهن الجميل ان يستسلمن للغرباء في يوم معين من ايام العيد ، وان يوقفن على عشتاروت ما كسبنه بعارهن .

ويبدو ان العيد الفينيقي كان يقام في الربيع، لأن موعده كان يتعين باستحالة لون مياه نهر ادونيس، وهذا يحدث عادة في الربيع، عندما تجرف كميات كبيرة من التراب الاحمر عن الجبـــال بفعل الامطار، فتلون مياه النهر بل والبحر لمسافة بعيدة بلون احمر قانٍ كالدم. فكانوا يعتقدون ان الصبغة القرمزية ان هي إلا دم ادونيس الذي يقتله الخنزير البري كل عـام على جبل لبنان . ثم ان شقائق النعمان الحمراء ، يقال انها نبتت من دم ادونيس او تضمخت بـه .

وبما ان الشقائق تزهر في سوريا حوالي عيد الفصح ، فمن المحتمل ان يدل هذا على ان مراسيم عيد ادونيس (او على الاقل احد اعياده) كانت تقام في الربيع ، وكلمة « نعمان » (اي الحبيب) التي تضاف اليها كلمة الشقائق ، هي احدى صفات ادونيس — ومعنى الشقائق « جروح الحبيب » . والوردة الحمراء ايضاً مدينة بلونها الى الحادثة نفسها ، اذ هرعت افروديتي الى عشيقها المجروح ، فوقعت قدمها على شجرة ورود بيضاء ، فمزقت الاشواك التي لا ترحم بشرتها الرخصة ، وضمخ دمها الزكي المقدس الورود البيضاء بالاحمر الى الابد ، ولعله من العبث ان نعلق كثيراً من الاهمية على دليل يستمد من مواسم الزهور ، او نتعلق بحجة مبنية على امر نحيف كازدهار الورود . ولكن اذا كان لهذه الحكاية شيء من الخطورة فان الوردة الدمشقية الحمراء باقترانها بموت ادونيس تشير الى الصيف اكثر منها الى الربيع كموسم الاحتفال بآلامه . اما في اتكا فكان العيد دون ريب في عنفوان الصيف . لان الاسطول الذي هيأته اثينا ضد « سراقوسه » التي قضت بتحطيمها على سطوة نفسها الى الابد ، ابحرت سفنه في منتصف الصيف ، فاتفق — وكان الاتفاق شؤماً — ان الاهالي كانوا حينئذ يحتفلون بمراسيم ادونيس . وعندما نزل الجنود الى الميناء ليركبوا سفنهم ، كانت الشوارع التي مشوا فيها محفوفة الجانبين بنعوش وتماثيل في شبه الجثث ، والنساء يشق عويلهن عنان السماء على ادونيس الراحل . فشاع لذلك الوجوم والتطير في ارجاء اروع اسطول مسلح انزلته اثينا الى امواج اليم . وبعد ذلك باجيال كثيرة ، دخل الامبراطور

يوليان (1) انطاكيا لاول مرة ، فرأى كذلك عاصمة الشرق المرحة المترفة وقد انغمست في حزن تقليدي على موت ادونيس السنوي : فاذا كان قد توقع الشر الذي لم يمهله بعد ذلك كثيراً ، فلا ريب ان اصوات النواح التي قرعت اذنيه تراءت له حينئذ كصوت الناعي المشؤوم .

والشبه واضح بين هـذه المراسيم وبين المراسيم الهندية والاوربية التي وصفتها في مكان آخر . والمراسيم الاسكندرية على الاخص تكاد تكون عينها في الهند باستثناء موعدها المشكوك فيـه . ففي كلا المكانين يرمزون الى زواج الكائنَين الالهيين بالنباتات التي يحيطونها بها . ويمثلونها بالتماثيل ، ويبكون على التماثيل فيما بعد ، ويقذفون بها في المياه . وبما ان هذه العادات متشابهة ، كما انها تشابه عادات منتصف الصيف في اوروبا الحديثة ، علينا ان نتوقع لكلها تعليلاً واحداً . واذا كان تعليل العـادات الاخيرة الذي قدمته صحيحاً ، تكون إذن مراسيم موت ادونيس وبعثه ايضاً تصويراً تمثيلياً لموت حياة النبات وبعثها . ويدعم هـذا

---

(1) انظر اواخر الفصل العاشر . ويدعى يوليان الجاحد لانه حاول استرجاع الوثنية بعد ان كانت النصرانية قد غدت دين الامبراطورية الرومانية ، ولكنه لم يعمر كثيراً (٣٣١–٣٦٣ ب.م.) وقد قام بغزوة مشهورة للشام والعراق (التي كانت حينئذ تابعة للفرس تحت حكم شابور الثاني) وقطع دجلة عند اقطيسفون (سلمان بك حالياً) وغلب الفرس في عدة مواقع . الا انه جرح في احدى المعارك ومات ، فانتكصت الجحافل الرومانية على اعقابها . وهو من الشخصيات اللامعة في التاريخ رغم موته المبكر ، وقد اشتهر بتسامحه واتساع افق تفكيره وجلده الشديد . (المترجم)

الاستنتاج المبني على تشابه العادات ، النقاط التالية في اسطورة ادونيس وطقوسه :

تبدو صلته بحياة النبت في الحال في قصة ميلاده الشائعة . فقد قيل انه ولد من شجرة من اشجار المر : اذ حبلت به هذه لعشرة اشهر ثم انشق لحاؤها عن الطفل الجميل . وقال البعض ان خنزيراً برياً مزق اللحاء بنابه وفتح ثغرة خرج منها الولد . وقد اعطيت الاسطورة شيئاً من الاحتمال العقلي بان قيل ان امه كانت امرأة تدعى « مرّه » تحولت الى شجرة مر بعيد حبلها بالجنين . ولعل استعمال المر بخوراً في عيد ادونيس هو السبب في اختلاق هذه الخرافة . وقد رأينا ان البخور كان يحرق في مراسيم مماثلة في بابل ، كما كان يحرقه عبدة الاوثان من العبرانيين امام « ملكة السماء » التي لم تكن الا عشتاروت . ثم ان القصة تقول ان ادونيس كان يقضي نصف السنة – او ثلثها حسب بعض الاساطير – في العالم السفلي ، ويقضي ما تبقى منها في العالم العلوي . وتعليل ذلك سهل وطبيعي ، اذا افترضنا انه يمثل حياة النبت ، لا سيما القمح ، الذي يبقى نصف السنة موارى في الارض ، ويظهر فوقها في النصف الآخر . وليس ثمة مظهر من مظاهر الطبيعة السنوية يوحي وحياً صريحاً بفكرة الموت والبعث ، كالذي يوحيه اختفاء النبت وعودته الى الظهور في الخريف والربيع .

وقد قالوا ان ادونيس هو الشمس . ولكن ليس في الشمس في المنطقتين المعتدلة والاستوائية ما يوحي بانه يموت لنصف السنة او ثلثها ويحيا لما تبقى منها . فقد يقال انه يضعف في الشتاء ، ولكن

لا يمكن ان يقـال انه يموت ، لأن ظهور الشمس كل يوم يناقض ذلك . اما في المنطقة المتجمدة ، حيث تختفي الشمس باستمرار لمدة تتراوح بين اربع وعشرين ساعة وستة اشهر حسب خط العرض ، فيكون موته السنوي وبعثه لا ريب امراً ظاهراً ؛ ولكن لم يقل احد ، سوى الفلكي المسكين « بيلي » ، بان عبادة ادونيس جاءت من المناطق القطبية . غير ان موت الخضرة وعودتها الى الحيـــاة فكرة يستسيغها الذهن بدون مشقـة في كل طور من اطوار الوحشية والتمدن . وبما ان هذا الاندثار وهذا البعث يتكرران ابداً بشكل لا حد لاتساعه ، وبقاء الانسان حياً يعتمد على تواليهما اعتماداً وثيقاً اضحى هذا التوالي في نظر الانسان اعظم حدث سنوي في الطبيعة، على الاقل في المناطق المعتدلة . فلا غرو اذا كان مظهر طبيعي خطير كهذا ، قوي الاثر في كل مكان ، يوحي في البلدان المختلفة بالفكر نفسه فتنشأ من اجله المراسيم المتماثلة . اذن يجوز لنا ان نعتقد بصحة تعليل عبادة ادونيس عندما ينسجم هذا التعليل مع حقائق الطبيعة ، كما ينسجم مع المراسيم المماثلة في البلاد الاخرى. وفضلاً عن ذلك ، فان هـــذا التعليل يسنده رأي قوي شاع بين الاقدمين انفسهم ، اذ فسروا ، مرة بعد اخرى ، الاله الذي يموت ثم يعود الى الحياة ، بالحبوب تحصد ثم تينع من جديد .

وتظهر جلية شخصية تمـــوز او ادونيس كروح للحبوب في الوصف الذي كتبه عن عيده كاتب عربي في القرن العاشر . فهو اذ يصف الطقوس والتضحيات التي يقوم بهـــا السوريون الوثنيون في «حرّان » في كل فصل من فصول السنة ، يقول: (تموز في منتصف

هذا الشهر عيد البكاة – او النساء الباكيات – وهو عيد تاعوز الذي يحتفلون به اجلالاً للاله تاعوز . والنساء يندبنه لأن سيده قتله عسفاً وظلماً ، وسحق عظامه في مطحنة ، ثم ذراها في الرياح . والنساء في هذا العيد لا يأكلن شيئاً طحن في مطحنة ، ويقتصرن في اكلهن عن القمح المنقوع والكرسنة والتمر والزبيب وما اشبه ذلك.)

وما تاعوز الا تموز .

وهذا التركيز لطبيعة ادونيس في الحبوب من صفات درجة التطور نحو الحضارة التي بلغها عبّاده في الازمنة التاريخية . فقد كانوا قد تخطّوا بكثير مرحلة الحياة البدوية المتنقلة التي يعيشها الانسان في طور الصيد والرعاية ، واستقروا في الاراضي الزراعية لعصور طويلة ، وجعلوا يعتمدون في حياتهم على نتاج الفلاحة . فغدت الفواكه البرية والجذور التي توجد في الفيافي وحشائش المراعي – وهي عماد حياة اجدادهم القدماء – غير ذات بال لهم :

وازداد اهتمامهم يوماً بعد يوم بعماد حياتهم الجديد ، الحبوب . وبذلك اصبح دينهم شيئاً فشيئاً يتمركز في ارضاء آلهة الخصب اجمالاً وإله الحبوب خاصة . فالهدف الذي كانوا يرمون اليه عند الاحتفال بمراسيمهم لم يكن الا عملياً صرفاً . وكلما رحبوا بعودة ميلاد النبت فرحين ، وبكوا على ذبوله نادبين ، لم يكن دافعهم الى ذلك عاطفة شعرية مبهمة . ان مصدر عبادة ادونيس لم يكن الا الجوع : الجوع في الاحشاء ، او الخوف منه.

ويقول «الأب لاغرانج» ، ان البكاء على ادونيس كان في جوهره طقساً من طقوس الحصاد يرجو الناس ان يسترضوا به إله الحبوب ،

إذ تقضي عليه حينئذ مناجل الحصادين ، او تدوسه حوافر الثيران في البيادر . وبينما يمعن الناس في قتله ، تذرف عليه النساء في البيوت دموع التماسيح ، كيما يهدئن من سورة غضبه المنتظر ، متظاهرات بالحزن على موته . وتنسجم هذه النظرية تماماً مع موعد اعياده التي كانت تقع إما في الربيع، او الصيف . فموعد حصاد القمح والشعير في البلاد التي كانت تعبد ادونيس هو الربيع والصيف لا الخريف ، ويدعم هذا الغرض عادة المصريين الذين كانوا إذ يحصدون باكورة الزرع يندبون ويدعون الى « إيزيس » ، كما ان بعض القبائل التي تعيش على القنَص تفعل ما يشبه ذلك ، إذ يظهرون اجلالهم للحيوانات التي يقتلونها ويأكلونها .

وحسب هذا التأويل لا يكون موت ادونيس مجرد ذبول الخضرة علمة في قيظ الصيف او برد الشتاء ؛ إنه يرمز الى تعدي الانسان تعدياً عنيفاً على الحبوب ، إذ يحصد السنابل في الحقول ، ويجزئها بالدرس في البيادر ، ويسحقها في المطحنة . ولا مشاحة في أن هذا المظهر كان أهم مظاهر ادونيس عند الشعوب الزراعية التي استوطنت الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، ولكن من المشكوك فيه ان ادونيس لم يكن باديء الامر الا الحبوب دون غيرها . بل لعله كان في العصور المبكرة ، وبخاصة عند الرعاة ، الكلأ الناعم الذي يبزغ بعد المطر لكي ترتع فيه الماشية بعد جوع وهزال . ولعله كان قبل ذلك يرمز ايضاً الى روح الاثمار البرية التي تنوء بها الغابات في الخريف لكي يجنيها الصياد المتوحش وزوجته . وكما يضطر المزارع الى ارضاء روح الحبوب التي يأكل منها ، على

الراعي ايضاً ان يهدىء من غضب روح الحشائش واوراق الشجيرات التي تلتهمها اغنامه ، وعلى الصياد ان يلطف من حنق روح الجذور التي يستأصلها ، وروح الفواكه التي يقطفها من على الاغصان . ففي جميع هذه الحالات التي يسعى فيها المرء أن يرضي الجني المغضب لالحاق الاذى به ، لا بد من أعذار مسهبة واستغفار، ليصحبها النحيب بأرفع الصوت على لقائه حتفه ، كلما مات او سلب بفعل طارىء مؤسف او حاجة ماسة . ولكن علينا ان نتذكر ان الصياد او الراعي المتوحش في تلك العصور المبكرة لم يكن قد ادرك بعد فكرة الزرع عامة — وهي فكرة مجردة . ولذلك ، ان وجد ادونيس في اذهانهم ، فلعله لم يكن سوى سيد كل شجرة او كل نبتة على حدة ، لا رمزاً يتمثل فيه الزرع بوجه عام . وبهذا يكون هناك ادونيسات كثيرون ، بعدد ما هناك من اشجار ونبتات ، كل منهم يبغي من الناس ان يعوضوه عن الأذى الذي يلحقونه بشخصه او بممتلكاته . فكلما سقطت الاوراق عن الاشجار ، عاماً إثر عام ، بدا للناس ان كل ادونيس من هؤلاء قد نزفت دماؤه حتى الموت باحمرار اوراق الخريف ، وعادت اليه الحياة بعودة الخضرة القشيبة في الربيع .

وقد وجدنا من الاسباب ما يحدو بنا الى الظن بان ادونيس كان احياناً يمثله رجل حي يموت موتاً عنيفاً بصفته إلهاً . وفضلاً عن ذلك هناك من الدلائل ما يشير الى ان الاقوام الزراعية شرقي البحر المتوسط، كانوا كثيراً ما يتمثلون روح الحبوب، مهما كان اسمها ، عاماً بعد عام ، في ضحايا بشرية يذبحونها في حقل الحصاد .

فاذا كان الامر كذلك ، يظهر ان ارضاء روح الحبوب كان يختلط بعض الشيء في عبـــادة الموتى ، لأنهم كانوا يظنون ان ارواح هؤلاء الضحايا تعود الى الحياة في السنابل التي غذوها بدمـــائهم ، وتموت موتاً ثانياً عند حصاد الحبوب . ثم ان اشباح الذين قضوا نحبهم قتلاً شديدة الحَنَق ، وتبغي لنفسها الانتقام من الذين اعتدوا عليها حالما تسنح الفرصة لذلك . ولهذا فمن الطبيعي ان تمتزج محاولة ارضاء الضحايا المذبوحة — على الاقل في ذهن العوام — في محاولتهم تسكين غضب روح الحبوب المقتولة .

ولما كان الموتى يعودون في شكل الحبوب الناميـــة ، ظن الناس ايضاً انهم يعودون في ازهار الربيع التي ايقظتها من سباتها الطويل نسمات الربيع الناعمة . فيهم انما قـد ناموا ليستريحوا تحت الثرى . وهل من شيء اقربِ الى الخيال من ان البنفسج والاقاحي والورود والشقائق ، نمت من ترابهم ، وتلونت بالارجوان من دمائهم ، واحتوت على شيء من ارواحهم ؟..

(ألا هل شاهدت يوماً وردة تفوق احمراراً
وردة نمت في ثرى ملك نزفت هناك دماؤه ؟..
هذه الزهور التي تاهت بها الحدائق انما قد سقطت
في حضنها من خصلات رأسٍ كان يوماً جميـــلاً.

***

(وهذا العشب القشيب الذي
يكسو شَفَة النهر التي عليها نضطجع —
بربك رفقاً به إذ تضطجع ، من يدري

من اي شفاه جميلة لا نراها قد نما العشب القشيب ؟..)

(عمر الخيام)

في معركة « لاندن » ، وهي ادمى معارك القرن السابع عشر في اوروبا ، تشبعت الارض بدماء عشرين الف رجل ، وإذا بها في الصيف الذي تلا المعركة تتفجر عن ملايين الشقائق . ولا عجب إذا تخيل المسافرون وهم يمرون بتلك البطاح الحمراء القانيــة ان الارض قد فغرت في الحق فاها لتلفظ امواتها !.. وفي اثينا كان عيد « ذكرى الموتى » الكبير يقع في الربيع حوالي منتصف آذار ، حين تزدهر اوائل الزهور . فكانوا يعتقدون ان الموتى حينئــذ يقومون من قبورهم ويمشون في الطرقات ، محاولين عبثاً ان يدخلوا الهياكل والمنــازل التي كانت توصد ابوابها في وجوه هذه الانفس المعذبة بالحبال والقار . واسم هـــذا العيد ، حسب تأويله الطبيعي الظاهر ، يعني « عيد الزهور » ، وهو يتفق تماماً مــع مواد مراسيمه ، إذا كان الناس فعلاً يعتقدون ان تلك الاشباح المسكينة تتسلل من مثواها الضيق الى النور مع الزهور المتفتحة . ولذلك قد يكون هناك شيء من الصحة في نظرية « رينان » الذي يرى في عبادة ادونيس مذهباً ملؤه اللذه الحسية والحلم ، هو مذهب الموت ، لا يكون الموت فيه « سلطان الرعب » ، بل ساحراً خبيثاً يغوي ضحاياه ويهدهدهم الى ان يغرقوا في نوم ابدي . فهو يقول إن فتنة الطبيعة الفائقة في لبنان تثير مشاعر دينية من هـــذا النوع الحسي المليء بالرؤى والخيــالات — مشاعر تحوم حائرة بين اللذة والألم ، بين السبات ، والدموع . ولا ريب في أنه من الخطأ

أن نعزو الى الفلاحين السوريين عبــادة فكرة مجردة صرف ، كفكرة الموت عامة . بيد انه قد لا يبعد عن الصواب أنهم مزجوا في اذهانهم البسيطة فكرة روح الزرع العائدة الى الحياة مع فكرة مجسّمة لأشباح الموتى الذين يبعثون ثانية في ايام الربيع مع الزهور الاولى : مع خضرة القمح الندية، ونَور الاشجار بالوانه الزاهية . وبهذا تصطبغ آراؤهم عن موت الطبيعة وبعثها ، بآرائهم عن موت الانسان وبعثه ، وبما يخالج صدورهم من آمال وآلام ومخاوف . كما إننا لا نشك في ان نظرية « رينان » في ادونيس تلونت هي نفسها بذكريات عميقـــة المشاعر ، ذكريات سبات كالموت يغلق عينيه على سفوح لبنان ، وذكريات اخته التي تنـــام في ارض ادونيس ولن تستيقظ مرة أخرى مع الشقائق والورود ...

الفصل العاشر

جنائن ادونيس

لعل خير برهان على ان ادونيس كان إلهـاً للزرع ، ولا سيما الحبوب ، يقدمه لنا ما كان يعرف بـ « جنائن ادونيس » . كانت هذه سلالاً او اصصاً ، تملأ بالتراب وتزرع فيها بذور القمح والشعير والخس والوان من الزهر ، وتعنى النساء دون غيرهن بهـا لثمانية ايام وهي في الشمس ، فتنمو بسرعة : ولكنها لعدم وجود جذور لها تذبل بنفس السرعة . وفي ختام الأيام الثمانية تحمل مـع تماثيل ادونيس الميت ، ويقذف بها مع التماثيل في البحر او الينابيع .

والتأويل الطبيعي لجنائن ادونيس هذه هو أنها تمثله ، او انها من مظاهر قوته . فهي تمثله كما هو في طبيعته الاصلية ، في شكل الزرع، بينما تصوره التماثيل، كالتي ترمى في المياه، في شكله البشري الذي نسب اليه فيما بعد . وإذا كنت مصيباً فيما ذهبت اليه ، فانه هذه الطقوس جميعها كان الغرض منها في الاصل ان تكون بمثابة رقى سحرية يرجى منها إنماء الزرع او اعادته الى الحياة . والقاعدة التي يبنون عليها هـذه العادة هي « السحر الهوميوباتي » او السحر التقليدي . وذلك ان الاقوام الجاهلة تظن انها بتقليدها للنتيجة التي تنشدها تسهل الحصول عليها في الواقع . فاذا رشوا مـاء انزلوا المطر ، واذا اشعلوا ناراً ، جعلوا الشمس تشرق ، وهكذا . وعلى

هـــذا ، اذا قلدوا نمو الغلال ، املوا في حصاد طيب . ونمو القمح والشعير بسرعة في «جنائن ادونيس» لم يقصد منه الا جعل الحبوب تنمو بسرعة . ورمي الجنائن والتماثيل في المياه كان رقية يبغى منها ضمان المطر الكثير لتخصيب الارض . وفي رأيي ان هـــذا هو الغرض ايضاً من رمي تماثيل الموت والكرنفال في الميـــاه في الاحتفالات المماثلة لتلك في اوروبا الحديثة . ومن الثابت ان هناك عادة ما زالت متبعة في اوروبا لاستنزال المطر ، وهي ان يكسى شخص باوراق الشجر ثم يصب الماء عليه — وهذا الشخص لا ريب يمثل الزرع . كما ان عادة صب الماء على آخر ما يحصد من سنابل ، او على من يأتي بها الى الدار (وهي ما تزال تتبع في المانيا وفرنسا، وحتى مؤخراً في انكلترا وسكوتلندا) يمارسها النـــاس في بعض الاماكن لغرض صريح ، وهو استنزال المطر على الحقول في السنة التالية .

ففي « والاشيا » وعند الرومـــانيين في « ترانسلفانيا » ، حينما تأتي فتاة وعلى رأسها تاج من آخر سنابل القمح في الحصاد ، يسرع كل من يراها في رش المـــاء عليها ، ويقف في انتظارها بالباب مزارعان والماء بين ايديهم لهذا الغرض . وذلك لأنهم يعتقدون انهم اذ لم يفعلوا ذلك حل بهم القحط وامحلت الارض. وعند السكسونيين في ترانسلفانيا ، يبللون المرء الذي يلبس اكليلاً من آخر سنابـــل الحصاد حتى يبتل جسمه من تحت الثياب ، لأنه كلما زاد بللاً كلما كان حصاد السنة المقبلة اطيب والحبوب المدروسة اغزر . ومن يحصد آخر سنبلة في بعض الاحيان هو الذي يلبس الاكليل .

وفي « بوبيا الشمالية » عندما تكوّم أكمار السنابل، تأتي زوجة المزارع بابريق ماء وتقدمه لكل من الرجال لكي يغسل يديه. فاذا ما فعل ذلك رش الماء على الحبوب وعلى ارض البيدر داعياً بطول بقاء الحبوب. وفي النهاية تحمل زوجة المزارع الابريق مائلاً وتركض مسرعة حول كوم السنابل دون ان تسقط منه قطرة واحدة، وهي تبتهل الى الله ان يدوم الكوم طويلاً كطول الدائرة التي رسمتها. وفي اثناء الحراثة في فصل الربيع في بروسيا، عندما يعود الحراثون والباذرون من الحقول في المساء، تريق زوجة المزارع والخدم المساء عليهم، فيرد عليهم الحراثون والباذرون بالامساك بهم والقذف بهم في بركة الماء واغراق رؤوسهم في الماء. وقد تعفى زوجة المزارع من ذلك لقاء اجر معين، ولكن لا بد من غمس كل واحد من الآخرين على ذلك النحو. واملهم من هذه العادة هو ان يضمنوا مطراً كافياً لما زرعوا من البذور. وفي بروسيا كذلك بعد الحصاد يبلاون بالماء المرء الذي يلبس اكليلاً من آخر السنابل وهم يتوسلون الى الله: (أن تنموا الحبوب وتتكاثر في المخازن والعنابر، كما نمت وتكاثرت بفعل المياه). وفي « انهلت » عندما يعود الفلاح من زرع اول البذور ترش عائلته الماء عليه، وعلى من لديه من عمال وخيل، بل وعلى المحراث نفسه. والغرض من ذلك حسب رواية اهالي «ارنسرورف» هو « ان تمرع الحقول حضاباً طيلة السنة. » وكذلك في « هس » عندما يعود الحراثون من الحقول يحملون المحراث لاول مرة تتربص بهم النساء والفتيات ويدلقون الماء عليهم مكراً. وقرب « نابورغ » في بافاريا يصب

بعضهم من مخبأه كأس ماء على اول العائدين من الحقل بعد الحراثة او البذر وقبل ان يخرج هنود « التوسايان » في اميركا الشمالية لزرع الاراضي ، تصب النساء الماء عليهم احياناً . والسبب في ذلك هو: (كما يصب الماء على الرجال ، هكذا فليسقط الماء على الاراضي المزروعة) . وهنود سانتياغو ينقعون بذور الذرة في الماء قبل زرعها لكي يمنح رب المياه الحقول ما تحتاج اليه من رطوبة .

والرأي بان جنائن ادونيس ان هي في جوهرها إلا رقى لانماء الزرع بكثرة – ولا سيا الحبوب – وأنها من نوع العادات التي يمارسها الشعب في الربيع واواسط الصيف في اوروبا الحديثة (وقد وصفتها في مكان آخر) – ان هذا الرأي لا يعتمد فقط في برهانه على كونه امراً قوي الاحتمال : ففي وسعنا لحسن الحظ ان نثبت ان جنائن ادونيس (اذ جاز لنا استعمال هذا الاصطلاح إطلاقاً) ما زال هناك من يزرعها ، اولاً عند احدى الجماعات البدائيه في موسم البذر، وثانياً عند الفلاحين الاوروبيين في اواسط الصيف . فاقوام « الاوراون والمندا » في البنغال عندما يحين اوان زرع شتائل الارز التي انميت في المشاتل ، يذهب نفر من شبابهم ، ذكوراً واناثاً، الى الغابة ويقطعون شجرة « كَرَما» صغيرة او فرعاً منها، ثم يحملونها منتصرين ويعودون وهم يرقصون ويغنون ويدقون الطبول ، ويزرعونها في وسط ارض الرقص في القرية ، ويقدمون لها قرباناً . وفي اليوم الثاني يشتبك الشباب من الجنسين ذراعاً في ذراع ويرقصون في حلقة حول شجرة الكرما ، التي يزينونها بالشرائط الملونة واساور وقلائد من المشيم . وبنات عمدة القرية في

تهيئتهن للعيد يزرعن شيئاً من الشعير على نمط غريب : فهن يزرعن البذرة في تربة رملية رطبة ممزوجة بالزعفران ، فتنمو سيقان تتفتق عن لون اصفر فاقع . وفي يوم العيد تجتث البنات هذه الوريقات ويحملنها في سلال الى ارض الرقص ، حيث يستلقين على وجوههن خاشعات ، ويضعن بعضها امام شجرة الكرما . وفي الختام تؤخذ هذه الشجرة ويقذف بها في جدول او صهريج ماء . ولا يخفى ما مغزى زرع وريقات الشعير هذه ثم تقديمها الى شجرة الكرما . فمن المعتقد ان للاشجار اثراً في سرعة انماء الزرع ، وهؤلاء القوم الذين نتحدث عنهم –المندار – يقولون :(ان آلهة الاحراش هي التي ترعى الغلال بعنايتها .) ولذلك إذا ما اتى المنداريون في موسم زراعة الارز بشجرة بهذا الاجلال والتكريم،فليس غرضهم من ذلك الا نمو الارز الذي هم على وشك زرعه . وعادة جعل وريقات الشعير تورق بسرعة وتقديمها بعد ذلك الى الشجرة ، لا يقصد منها الا خدمة هذا الغرض بعينه ، ولعلهم بذلك يذكرون روح الشجر بواجبها نحو الغلال ، ويثيرون نشاطها بهذا الرمز لنمو الزرع السريع . اما القذف بشجرة الكرما في المياه ، فهو رقية لاستنزال المطر . ولا نعرف اذا كانوا يقذفون بوريقات الشعير ايضاً في الماء ، ولكن إذا صح تأويلي فلعلها هي ايضاً تقذف مع الشجرة . والفرق بين هذه العادات البنغالية وطقوس ادونيس الاغريقية ، هو ان روح الشجر عند البنغاليين تظهر في شكلها الاصلي في الشجرة ،في حين ان ادونيس عند عباده يظهر في شكل انسان يتمثلونه ميتاً ، ولكن طبيعته الزرعية يشار اليها بجنائن

ادونيس – وهي مظهر ثانوي من مظاهر قوته الاصليه كروح للشجر .

والهندوكيون ايضاً يزرعون جنائن ادونيس، ويبدو أنهم يستهدفون بذلك ضمان خصب الارض والناس معاً . ففي « اوديبور » في راجبوتانا يحتفلون بعيد « غوري » او « إيساني »، إلهة الخصب والوفرة – وهي كايزيس المصرية او كيريس (١) الاغريقية . ويقام هذا العيد في التعادل الربيعي – يوم نيروز – عندما تكون هذه المناطق المشرفة على الاستوائية في عنفوان ازدهارها . وتلقى « غوري » ذات الامومة الخصبة بوشاحها الذهبي على « فاسانتي » ، وهو رمز الربيع ، ولذلك يجعل اخضر اللون . حينئذ تكشف الثمار عن جمالها للعين ، وتشنف المعازف الآذان بالانغام، ويعبق الهواء بالشذى ، وتتوهج الشقائق القرمزية مع سيقان السنابل الذهبية التي يجعلون منها اكليلاً لغوري الكريمة. وغوري احد اسماء « إيسا » او « برفاتي » زوجة اكبر الآلهة شأناً : (« ماهاديو » او « اساوارا » الذي يسترحم مع زوجته في هذه الطقوس) .

وتكاد النساء يستأثرن بالقيام بها . ومعنى « غوري » اصفر، وهو اللون الذي يرمز الى نضج الحصاد ، حين يصلي اتباعها الى اصنامها : وهي في شكل امرأه ناضجة الانوثه ، مصبوغة بلون الحبوب الناضجة . وتبدأ الطقوس عندما تدخل الشمس برج الحمل ،

---

(١) هي في الواقع الهة الزرع الرومانية في القدم ، ويقابلها عند الاغريق ديميتر، وطقوسها متشابهة . (المترجم)

وهو رأس السنة الهندوكية . ويصنع تمثال غوري من التراب ، وتمثال آخر اصغر منه لزوجها « إسوارا » ويوضع كلاهما معاً . ثم يحفر ثلم في الارض ويزرع فيه شيء من الشعير ، يسقى ويسخن تسخيناً مصطنعاً ، الى ان ينبت . وعند ذلك ترقص النساء حوله يداً بيد ، ويستنزلن بركات « غوري » على ازواجهن . وبعدها تؤخذ حشائش الشعير وتوزعها النساء على الرجال ، فيلبسها هؤلاء في عماماتهم ، ولكل عائلة ثرية ، او على الأقل لكل طبقة من طبقات اهل المدينة ، صنمها او رمزها الخاص . وهذه الطقوس وغيرها لا يعرفها الا المكرسون ، وهي تستغرق بضعة ايام . ويقام بها في داخل المنازل . وفيما بعد يزينون اصنام الالهة وزوجها ويحملونها في موكب الى بحيرة جميلة وقد انعكست في مياهها الزرقاء الرائعة سماء الهند الصافية ، وقصورها الرخامية ، واشجار البرتقال . وهنا تأتي النساء ، وقد زيّن شعورهن بالورود والياسمين ، فيهبطن بصنم غوري الدرج الرخامي الى شفة الماء ، ويرقصن حوله وهن ينشدن التراتيل والاغاني الغرامية والمفروض ان الالهة في هذه الاثناء تستحم في الماء . ولا يشترك الرجال في هذه المراسيم ، حتى وصنم اسوارا ، زوج الالهة ، لا يلفت انتباه احد !..

ففي هذه الطقوس يدل توزيع حشائش الشعير على الرجال واستنزال النساء البركات على ازواجهن دلالة واضحة على ان الرغبة في النسل ، هي احد الدوافع التي تهيب بهن الى ممارسة هذه العادات . وربما يعلل هذا الدافع استعمال البراهميين لجنائن ادونيس

في « مدراس » . فهم يمزجون البذور من خمسة انواع او تسعة ، ويزرعونها في أصص فخارية تصنع خصيصاً لهذا الغرض ، وتملأ بالتراب . ثم يسقي العريس والعروس هذه البذور صباحاً ومساء، لايام اربعة متوالية ، وفي اليوم الخامس يلقى بها – كجنائن ادونيس الحقيقية – في النهر او في صهريج ماء .

وفي بقاع هملايا في الهند الشمالية الغربيـــة ، يزرع الفلاحون الشعير او الذرة او الخردل في سلة مملوءة تراباً في اليوم الرابع والعشرين من الشهر الرابع (اساره) ، الموافق اواسط تموز . وفي اليوم الأخير من الشهر ، يضعون بين النبتات التي تكون قد ظهرت اصناماً صغيرة من الطين للالهين مهاديو وبارفاتي، ويعبدونها احتفاء بذكرى زواجها . وفي اليوم التالي يقطعون الحشائش ويلبسونها في قبعاتهم .

ومن عادات اهل بافاريا – في اوروبا – ان يزرعوا القنب في وعاء في الايام الثلاثة الأخيرة للكرنفال . وقياساً على البذرة التي تنمو احسن من غيرها ، يستدلون اذا كان الزرع المبكر او المتوسط او المتأخر هو لذي سينتج احسن الغلال . وفي سردينيا ما زالت جنائن ادونيس تزرع في مناسبة عيدهم الكبير في اواسط الصيف الذي يدعونه عيد مار يوحنا . ففي آخر آذار وأول نيسان يتقدم شاب من شباب القرية الى احدى فتياتها ، ويطلب اليها أن تكون حبيبته ، وأن يكون هو حبيبها . واهل الفتـــاة يعدون مثل هذا الطلب فخراً لهم ، وتستجيب له الفتاة بسرور . وفي آخر ايار تضع الفتاة وعاء من لحاء شجر الفلين وتملأه بالتراب،

وتزرع فيه حفنة من القمح والشعير ، ثم تضعها في الشمس وتسقيها بكثرة . وعند ليلة منتصف الصيف (ليلة عيد مار يوحنا ، في الثالث والعشرين من حزيران) ، تكون قد اينعت ونمت . وفي يوم العيد يخرج الشاب والفتاة في حفل ، يحيط بهم جمع كثير ويتقدمهم الاولاد يرقصون ويعبثون ، ويذهبون الى كنيسة تقع خارج القرية . وهنا يكسرون الوعاء بالقائه بعنف على باب الكنيسة ، ثم يجلسون في حلقة على الحشيش ويأكلون البيض والمخضرات وهم يصغون الى موسيقى المزامير . وتمزج الخمر في كأس تدار عليهم ، يشرب كل واحد منها بدوره . وبعد ذلك يمسك بعضهم بايدي بعض ويغنون « عشاق وعاشقات مار يوحنا » (Compare e comare di San Giovanni) ، ويرددون هذا الغناء والمزامير تعزف . وعندما يسأمون الغناء ينهضون ويرقصون في حلقة مرحين حتى المساء .

هذه هي العادة المتبعة عموماً في سردينيا . امـــا في بلدة « اوتسيري » فلها بعض الخصائص . في ايار تصنع الاوعيـــة من لحاء الفلين وتزرع كما وصفنا سابقاً . وفي ليلة عيد مار يوحنا تغطى عتبات النوافذ بالاقمشة الفاخرة ، وتوضع عليها الاوعية وقد زينتها قطع من الحرير زرقاء وقرمزية واشرطة من الوان متباينـــة . وكانوا فيما مضى يضعون على كل وعاء تمثالاً صغيراً او دميـــة من القماش في شكل امرأة ، او جسمـــاً من معجون مجفف في شكل الذكر – غير ان الكنيسة شددت على منع هـــذه العادة حتى نقرضت – ثم يذهب شباب القرية سوية ليروا الأوعية وزخارفها،

ولينتظروا الفتيات اللواتي يجتمعن في الميدان للاحتفال بالعيـــد . وهنا توقد النار ويرقصون حولها ويعبثون . ومن يبغ ان يكون من « عشاق مار يوحنا » يفعل ما يلي : (يقف الشاب على طرف من النار ،وتقف الفتاة على الطرف الآخر ، ويضمان ايديهما رمزياً بان يمسك كلاهما بطرف من عصا طويلة يحركانها فوق النار جيئـة وذهاباً ثلاث مرات ، وبذلك يقذفان بايديها في النار ثلاث مرات بسرعة : وهذا يمكتن ما بينهما من علاقـــة . ويستمر الرقص والموسيقى حتى ساعة متأخرة من الليل). والشبه بين هذه الاوعية السردينية وبين جنائن ادونيس يبدو تاماً ، وتحاكي الأصنــام الصغيرة التي كانت توضع فيها فيا مضى اصنام ادونيس التي كانت ترافق جنائنه .

وللناس في صقلية عوائد مماثلة لهذه في الموسم نفسه . فان ازواجاً من الصبيان والصبايا يصبحون اخداناً لمار يوحنا يوم عيده بان يسحب كل فتى شعرة من رأس فتاته، وتسحب كل فتاة شعرة من رأس فتاها ، ويقوموا بشعائر متباينة عليهـــا ، كأن يربطوا الشعرات معاً ويطلقوها في الهواء ، أو يتبادلوها من فوق قطعة من آنية محطمة ، يكسرها الحبيبان بعد ذلك الى قطعتـــين ، ويحتفظ كلاهما بقطعة بحرص وايمان . ويعتقدون ان العروة التي تتوثق على هذا النحو لا تنفصم طيلة العمر . وفي بعض انحاء صقلية يهدي اخدان مار يوحنا بعضهم البعض صحوناً فيها قمح وعدس قد اينع ، يكونون قد زرعوه قبل العيد باربعين يوماً . والذي يهدى اليـــه الصحن يجتث ساقاً من النبت الأخضر الذي فيه ، ويربطه برباط

حريري ويحفظه ضمن اعز كنوزه ، ثم يرجع الصحن الى معطيه . وفي « كاتانيا » يتبادل الاخدان اوعية الريحان والخيار وتعنى البنات بالريحان وكلما تكاثفت في نموها كلما ازددن تقديراً لها .

في عادات منتصف الصيف هذه في سردينيا وصقلية ، من المحتمل ان مار يوحنا قد احتل مكان ادونيس . وقد رأينا ان مراسيم تموز او ادونيس كانت تقام في اواسط الصيف ، بل كان موعدها ، حسب قول جيروم ، شهر حزيران . وفضلاً عما بين الاثنتين من شبه من حيث الموعد واوعية النبت والقمح ، فان بين الاحتفالات المسيحية والاحتفالات الوثنية نقطة شبه اخرى . في كلتيهما يلعب الماء دوراً بارزاً ، في عيد تموز في بابل ، حيث كان يجري الاحتفال به في اواسط الصيف ايضاً ، كان صنم تموز يحمم بالماء النقي ، ويقال ان معنى تموز : (الابن الحقيقي للمياه العميقة) . وفي عيده الصيفي بالاسكندرية كان يلقى بصنم أدونيس وصنم خليلته الالهية ، في خضم الموج . وكذلك في عيده الصيفي في بلاد اليونان ، كانت ترمى جنائن ادونيس في البحر او في مياه العيون . وكانت او ما تزال احدى الخصائص المهمة للاحتفال الصيفي الذي يقرن باسم مار يوحنا ، عادة الاستحمام في البحر أو مياه العيون ، أو الانهر ، او الطل الذي يسقط ليلة منتصف الصيف أو صباحه . ولهذا نجد في نابولي مثلاً كنيسة مكرسة لمار يوحنا المعمدان باسم « مار يوحنا البحري » ، ومن قديم العادات ان يستحم الرجال والنساء في البحر ليلة عيد مار يوحنا — اي ليلة منتصف الصيف — معتقدين ان ذلك يمسح عنهم خطاياهم.

وفي «ايروتزي» لا يزال الناس يعتقدون ان المياه تكتسب خصائص عجيبة عظيمة الفائدة ليلة عيد مار يوحنا . فهم يقولون ان الشمس والقمر في تلك الليلة يستحمان في الماء ، ولذلك فان كثيرين من الناس يستحمون عندئذ في البحر او في النهر ، وبخاصة في لحظة طلوع الشمس . ويعتقدون ان الندى الساقط ليلة هذا العيد يفيد كل ما يمسه ، سواء أكان ذلك ماء ، ام زهوراً ام جسم انسان . ولذلك يضع الناس اواني الماء في النوافذ او الشرفات في الليل . ويغتسلون بذلك الماء في الصباح التالي ، لكي يطهروا انفسهم فلا يصيبهم الصداع او الزكام . وهناك طريقة انجع من هذه ، وهي القيام عند انبلاج الفجر ، وبل اليدين بالحشيش الندي ، ثم فرك الاجفان والجبين والصدغين برطوبة الطل ، لأن الندى في اعتقادهم يشفي امراض الرأس والعينين ، كما أنه دواء للامراض الجلدية . فمن في جلده مرض عليه ان يتمرغ في الحشيش الندي ، وإذا لم يستطع رجل لشدة مرضه ان يغادر غرفته ، يجمع اصدقاؤه الندى في شرشف يضعونه على الاجزاء المعتلة في جسمه . وفي مرسالا في صقلية ينبوع ماء في كهف ارضي يدعى « كهف النبيّة » ، وبقربه كنيسة لمار يوحنا يُظن أنها بنيت على انقاض هيكل لأبولو ، ففي ليلة عيد مار يوحنا – الواقع في الثالث والعشرين من حزيران – تزور النساء والصبايا هذا الكهف ويشربن من الماء الذي تُنسب اليه صفة النبوة ، فيعرفن إذا كان ازواجهن قد خانوهن في العام المنصرم ، أو إذا كن سيجدن ازواجاً لهن في العام المقبل . وكذلك يعتقد المرضى انهم اذا استحموا بذلك

المـــاء وشربوا منه ، او غطسوا رووسهم فيه ثلاثاً باسم الثالوث الاقدس ، يبرون من سقامهم . وعندمـــا زار الشاعر الايطالي القديم« بترارك » مدينة« كولون » ، اتفق ان وصل اليها ليلة عيد مار يوحنا . كانت الشمس عـــلى وشك المغيب ، فاقتاده مضيفه في الحال الى نهر الراين . وهناك رأى مشهداً غريبـــاً : اذ وجد على الضفتين حشداً من النساء الحسان ، ومن عـــلى مرتفع قريب رأى كثيراً من اولئك النساء ، وقـــد تمنطقن بحشائش عطرية ، يركعن على حافة الماء ، ويشمرن عن سواعدهن ، ويغسلن اذرعهن البيضاء وايديهن بمياه النهر ، وهن يتمتمن بكلمات لم يعرف الشاعر الايطالي معناها . فقيل له ان تلك عادة بعيدة في القـــدم ، وان النساء حريصات عـــلى القيام بها ، لأن العوام – وبخاصة النسوة منهم – يعتقدون ان الاغتسال في النهر ليـــلة عيد مار يوحنا ، يصرف عنهم كل نازلة في اثناء السنة القادمة . وفي كوبنهاغن كان الناس ليلة هذا العيد يحجون الى عين مجاورة لكي يشفوا ويقوّوا انفسهم بمياهها . وفي اسبانيا ما زال الناس ليلة عيد مـــار يوحنا يستحمون في البحر او يتمرغون عراة الابدان في ندى الحقول ، معتقدين ان ذلك خير ما يمنع عنهم امراض الجلد . وكذلك يعتبر هذا التمرغ في الندى ليلة عيد مار يوحنا علاجاً للأمراض الجلدية في نورمندي وبريفور . وفي سيوتا في مقاطعة بروفنس ، بينما تندلـــع نيران محرقـــة منتصف الصيف ، يرتمي الشباب في احضان الموج ويرشق بعضهم الماء على بعض بعزم شديد . وكان صب المياه عـــلى الناس في هذا العيد عادة شائعة فيما مضى في طولون ومرسيليا وغيرهما

من مدن جنوبي فرنسا . فكانوا يطلقون الميـــاه من حقن او يسكبونها على رؤوس المارة من النوافذ وهلم جرا . ويبدو ان عادة الاستحمام في الانهر والينابيع يوم عيد مار يوحنا قـــد حملها الاسبان معهم الى الدنيا الجديدة ايضاً .

قد يظن البعض ان هذه العادة الواسعة الانتشار – عـــادة الاستحمام بالماء او الندى ليلة منتصف الصيف او يومه – إنما هي مسيحية الأصل ، كان الغرض منها الاحتفال بعيد يوحنا المعمدان احتفالاً مناسباً له . غير ان هـــذه العادة في الواقـــع اقدم من النصرانية ، لأن اوغسطين (في القرن الخامس) حمل عليها وحرّمها لأنها من عادات الوثنية ، وما زال سكان شمالي افريقيا المسلمون يمارسونهـــا في منتصف الصيف حتى اليوم . واغلب الظن ان الكنيسة ، عندما عجزت عن القضاء على هـذا الأثر الوثني ، اتبعت سياستها المعهودة بالتحوير والملاءمة ، بان منحت هذه المراسيم اسماً مسيحياً وقبلت مكرهة من الناس القيام بها . وحين بحث حكماء النصرانية الاولون عن قديس يحمل مكان إله نصير للاستحمام ، كان اختيارهم للقديس يوحنا المعمدان احسن اختيار .

ولكن من هو الاله الذي حل المعمدان مكانه ؟.. أكان الاله المستبدل حقاً ادونيس ، كما تدل الدلائل السابقة ؟.. لعل الأمر كذلك في سردينيا وصقلية ، لأن التأثير السامي في هاتين الجزيرتين كان ولا ريب عميقاً ، ولعله كان ايضاً تأثيراً باقياً . فملاهي منتصف الصيف السردينية والصقليه ، على الارجح ، ليست إلا استمراراً مباشراً لمراسيم تموز القرطاجية . غير ان احتفالات منتصف الصيف

واسعة الانتشار وعميقة الجذور في اواسط اوروبا وشمالها ، بحيث لا نستطيع ان نستشف في كل مكان اصلها الشرقي عامة وصفتها الادونيسية خاصة . إن لها صفة محلية كالتربة التي نمت فيها ، لا صبغة الشيء الاجنبي المستورد من الشرق . ولذلك نكون ابعد عن الخطأ اذا قلنا إن اساليب فكرية متشابهة ، في زمن عريق في القدم ، مبنية على حاجات متشابهة ، حدت بالناس – كل قوم على حدة – في اقطار متباعدة ، من البحر الشمالي الى الفرات ، الى الاحتفال بالانقلاب الصيفي بطقوس تتفق من نواح كثيرة وإن تتباين من نواحٍ اخرى ، وإن موجة من التأثير الشرقي ربما ابتدأت منذ اقدم الازمنة التاريخية في بابل ، حملت الاحتفال بشكله التموزي او الادونيسي غرباً إلى ان التقى باشكال محلية لاحتفال يشابهه ، وإن هذه الاحتفالات المختلفة شكلاً والمتقاربة روحاً اندمج بعضها في بعض بضغط من الحضارة الرومانية ، وتبلورت في اشكال عديدة اتيحت لها الحياة متفرقة جنباً الى جنب ، الى ان جاءت الكنيسة : وإذ لم تستطع هذه ان تقضي عليها جميعاً ، جردتها من بعض خصالها الفظة ، وغيرت الاسماء فيها بمهارة فائقة ، وسمحت لها بالبقاء كأنها نصرانية . وما قلناه الآن عن احتفالات منتصف الصيف يمكن تطبيقه – مع التنقيح اللازم في التفاصيل – على احتفالات الينابيع ايضاً . فهي كذلك تلوح انها نشأت على حدة في اوروبا وفي الشرق ، وبعد قرون من الفراق توحدت في ظل الامبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية . ففي سورية ، كما رأينا ، يظهر انه كان هناك عيد ربيعي لادونيس ، كما ان في مراسيم

آتيس في مصر عيداً لا شك فيه كعيد الربيع الشرقي . ولكن لنعد ثانية الى عيد منتصف الصيف المدعو باسم مار يوحنا .

ان العادة في سردينيا التي بموجبها يرقص الناس ويغنون حول محرقة كبيرة ليلة عيد مار يوحنا ، مثل واحد من عادة كان تتبع في عيد منتصف الصيف في بقاع كثيرة من اوروبا منـــذ الازمنة الغابرة . (وقد تناولتُ هذه العادة بالبحث مفصلاً في مكان آخر) وتدل الأمثلة التي ذكرتها في اماكن اخرى من هذا الكتاب على الصلة بين محرقة منتصف الصيف، وبين الزرع .فمثلاً نجد ان من أهم عناصر هـذا الاحتفال في السويد وبوهيميا إقامة « عمود أيار » او « شجرة منتصف الصيف » ، وهذه في بوهيميا يلقى بها في المحرقة . وكذلك في روسيا ، عند الاحتفال بمنتصف الصيف ، يوضع تمثال من الهشيم لكوبالو ،يمثل الزرع، قرب عمود أيار أو شجرة منتصف الصيف ثم يحمل جيئة وذهاباً فوق المحرقة فكوبالو يمثل هنا مزدوجاً: في شكل شجري بشجرة منتصف الصيف،وفي شكل إنساني بتمثال الهشيم ،كما كان ادونيس يمثل بصنم وبجنينة أدونيس . وكلا شكلي كوبالو ، كشكلي ادونيس ، يطرح نهائياً في الماء . وفي العادات الصقلية والسردينية ، لعل اخوان او عشاق مار يوحنا يماثلون تموز وعشتاروت من ناحية ، وملك وملكة ايار من ناحية اخرى.ومن مراسيم منتصف الصيف في مقاطعة بليكنغ في السويد انتخـــاب « عروس منتصف الصيف » ، لكي تختار لها عريساً . ثم يقومون بجمع التبرعات لهما ، ويعتبرونهما مؤقتاً زوجاً وزوجة . فازواج منتصف الصيف ، كازواج ايار ، يمكن اعتبـــارهم رموزاً لقوة

الزرع او الخصب عامة : فهم يرمزون لحماً ودماً الى ما ترمز اليه صورة اصنام سيفا (او مهاديو) وبارافاتي في المراسيم الهندية ، وأصنام ادونيس وافروديتي في المراسيم الاسكندرية .

وقد بحثت في مكان آخر السبب في اقتران المحارق بالمراسيم التي يستهدف منها تكاثر الزرع ، وبخاصة السبب في ان رمز الزرع يحرق في شكل شجرة او يحرك جيئة وذهاباً فوق النار في شكل صنم او رجل وامرأة . ولكن حسبنا هنا أن نرى دليلاً على هذا الاقتران ، نتخلص به من الاعتراض الذي قد يثيره البعض على نظريتي السردينية بقولهم : ان المحارق لا علاقة لها بالزرع .وسأقدم هنا دليلاً آخر يدحض مثل هذا الاعتراض :

في بعض انحاء المانيا والنمسا يقفز الشباب والشابات فوق محارق منتصف الصيف املاً في ان ينمو القنب عالياً في الحقول . ولذلك يحق لنا ان نقول ان نبتات القمح والشعير التي ينميها الناس في الاواني، حسب عادتهم في سردينيا، انتظاراً لعيد منتصف الصيف، والتي هي شديدة الشبه بجنائن ادونيس، إنما هي احد مراسيم منتصف الصيف الواسعة الانتشار ، التي كان الغرض الأصلي منها إكثار الزرع ولا سيا الحبوب . ولكن بامتداد في الفكرة (وهذا امر يسير على الانسان) ، اعتقدوا ان لروح الزرع تأثيراً مخصباً مفيداً على حياة الانسان والحيوان . وبناء على ذلك ظنوا ان جنائن ادونيس ، كأشجار أيار او فروع أيار ، تأتي بالفأل الحسن ، بل النسل الكثير بوجه خاص ، لكل امرىء او عائلة تزرع هذه الجنائن . ثم اقلع الناس عن الاعتقاد بانها تجلب لهم الرخاء ، غير

أنهم ما انفكوا يرون فيها بشيراً بالخير او نذيراً بالشر . وعلى هذا النحو ينحط السحر، فيصبح عرافة . ولهذا نجد اساليب من العرافة يمارسونها في منتصف الصيف ، وهي شديدة الشبه بجنائن ادونيس . فهناك كاتب ايطالي مجهول من كتاب القرن السادس عشر يقول: ان من عوائد القوم ان يزرعوا قمحاً وشعيراً قبل عيد مار يوحنا (منتصف الصيف) بايام قلائل ، وكذلك قبل عيد مار فيتوس : فاذا نمت الحبوب نمواً حسناً قالوا سيكون صاحبها سعيداً، وسيجد له زوجة صالحة ، وإذا كانت امرأة ، زوجاً صالحاً . واذا لم تنم نمواً حسناً ، عد ذلك شؤماً على صاحبها . وفي انحاء مختلفة من ايطاليا ، وفي جميعها بصقلية ، ما زال من عاداتهم ان يضعوا نبتات في الماء او الارض ليلة عيد مار يوحنا ، ثم يرون يوم العيد اذا ازدهرت او ذبلت ، فيعرفون إذا كانت الايام تخبىء لهم الهناء ام الشقاء ، وبخاصة في شؤون الحب .

وفي صقلية ما زالت جنائن ادونيس تزرع في الربيع كما في الصيف ، مما يحدو بنا الى الاستنتاج بان صقلية كانت فيما مضى كسوريا تحتفل بعيد ربيعي للاله الذي يموت ثم يبعث حياً . فاذا ما دنا عيد الفصح (العيد الكبير) جعلت النساء الصقليات يزرعن قمحاً وعدساً في صحون يحفظنها في الظلام ويسقينها مرة كل يومين، وسرعان ما تنبت وترتفع سيقان النبت ، فيربطنها سوية بشرائط حمراء ، ويضعن الصحون التي هي فيها على اضرحة تحتوي على تماثيل المسيح ميتاً — وهي تقام في الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية يوم الجمعة الحزينة ، كما كانت جنائن ادونيس توضع

على اضرحة ادونيس الميت تماماً . ولا تقتصر هذه العادة على صقلية وحدها ، بل نجدها في كوسنتزا وفي كالابريا واماكن اخرى . فالعادة بحذافيرها – من اضرحة الى اوانٍ من الحبوب اليانعة – ليست في الواقع الا استمراراً لعبادة ادونيس ، ولكن باسم جديد .

وليست هذه العادات الصقلية والكالابرية الاحتفالات الوحيدة في عيد الفصح المشابهة لطقوس ادونيس : « فطوال يوم الجمعة الحزينة يسجّى تمثال شمعي للمسيح ميتاً في وسط كل كنيسة ارثوذكسية ،فتقبّله الناس بحرارة وايمان ، في حين تمتلئ جوانب الكنيسة بمراثٍ حزينة رتيبة . وفي المساء ، عندما يهبط الظلام ، يحمل الكهنة هذا التمثال الشمعي الى الطريق في نعش مزدان بزهر الليمون والورود والياسمين وزهور اخرى . وهناك يتألف موكب رائع في الجماهير المزدحمة ، يمشون ببطء ووقار في شوارع المدينة كلها ، يحمل كل رجل منهم شمعة في يده ، وهو ينطلق في نحيب أليم . وفي كل منزل يمر به الموكب نساء جالسات يحملن المباخر لكي يبخرن بها هذا الجحفل الحزين . وهكذا يدفن الشعب مسيحه كأنه قد مات ذلك اليوم حقاً . وفي النهاية يوضع التمثال الشمعي ثانية في الكنيسة ، وتستأنف تراتيل الرثاء حيث تستمر – والمرتلون والشعب صائمون – حتى منتصف الليل بعد السبت . وعندما تدق الساعة الثانية عشرة ، يظهر الاسقف ويبشر بالخبر السار بأن (المسيح قد قام) ، فيجيب الشعب قائلاً : (إنه قد قام حقاً) . وفي الحال تنفجر المدينة بصيحات الفرح ، فيصرخ

الناس ويهللون ، ويطلقون العبـــارات النارية ويفجرون الوان الألعاب النارية . وفي تلك الساعة نفسها ينصرف الجميع من صومهم الشديد الى خروف الفصح ، والنبيذ الشهي .

وقد اعتادت الكنيسة الكاثوليكية ان تقدم لأتباعها على هذا النمط نفسه موت المسيح الفادي وبعثه بشكل مرئي ملموس .ان تمثيليات مقدسة كهذه تفعل فعلاً عجيباً في الخيال الوثاب والعواطف الحارة التي تتصف بها شعوب جنوب اوروبا السريعة الانفعـال : فبهرجة الكنيسة الكاثوليكية وابهتها اقرب الى مزاجهم منها الى المزاج البارد عند الأقوام التيوتونية . والشعائر الدينية التي تقام في صقلية يوم الجمعة الحزينة ، يصفها كاتب صقلي كما يلي :

(من الاحتفالات التي تفعل في النفس حقاً موكب الدورة التي يقوم بها الشعب مساء الجمعة الحزينة كل سنة في كل مقاطعة في صقلية ، ثم الاحتفـــال بتنزيل يسوع عن الصليب . ويشترك رهبان الاخويات المختلفة في الموكب ، ويسير في مؤخرته جمـــع غفير من الاولاد والبنات يمثلون القديسين والقديسات ، ويحملون علامات آلام المسيح . ويقوم الكهنة بتنزيل يسوع عن الصليب ، وقد احاط بالنعش الذي وضـــع فيه المسيح الميت يهود يحملون السيوف ، مما يثير الكره والاستنكار في وسط مشهد يثير عميق الأسى ، لا لوجود المسيح فحسب ، بل لوجود الأم الحزينـــة ايضاً التي تتبع النعش . وبين الحين والآخر تتقدم الحشد «اسرار الصلبوت او رموزه ».وكان الموكب يستمر احياناً طيلة «ساعات الاحتضار الثلاث» و « التنزيل عن الصليب» ، اما الساعات الثلاث

فهي الساعات التي قضاها يسوع المسيح على الصليب . ومن الساعة السادسة حتى التاسعة يتناوب قسيسان الوعظ عن آلام المسيح : وكانت الوعظات في القـــدم تلقى في العراء في مكان يدعى الجلجلة .

واخيراً ، عندما توشك الساعة الثالثة ان تـدق . والـكاهن يقول : (ثم اسلم الروح) ، يموت المسيح ، وقد طأطأ برأسه بين نشيج الواقفـــين ودموعهم . وبعد ذلك حالاً – كما في بعض الأماكن – او بعد ذلك بثلاث ساعات – كما في غيرها – كان الجسد الطاهر تنزع منه المسامير وينزل الى النعش . وفي بلدة كسترونوروفو ، عندما يبدأون بترتيل : (السلام عليك يا مريم) يتقدم قسيسان يلبسان ثياب اليهود يمثلان يوسف ونيقوديموس(١) ومعهمـــا خدمهما يلبسون الزي القديم ، ويـــذهبون الى الجلجلة – مكان الصليب – يتقدمهم « جماعة الاخوان البيض » . وهناك يقومون بشتى وظائف « التنزيل » ، وهم ينشدون القصائد والتراتيل الحزينة ، الموضوعة خصيصاً لهذه المناسبة . وبعدها يتجه الموكب نحو الكنيسة الكبيرة ... وفي «سالاباروتا» تقام الجلجلة في الكنيسة نفسها ، وحين يعلن موت المسيح ، ينحني رأس المصلوب بفعل آلة مركبة ، بينما يطلقون المدافع ، وينفخون في الابواق : وفي وسط سكون الجماهير وقـــد استسلموا لرهبة موت الفادي ، تسمع ألحان سير جنائزي شجي ، فيقوم ثلاثة كهنة بتنزيل

---

(١) هما اللذان – حسب ما ورد في الانجيل – قاما بدفن السيد المسيح .
(المترجم)

المسيح عن الصليب ووضعه في النعش . وبعد دورة المسيح الميت يدفن ، وذلك بان يضعه كاهنان في ما يشبه الضريح . وفي قداس سبت الفصح يقام تمثال المسيح من الضريح وترفعه آلة فوق الهيكل . وتعرض تمثيليات من هذا الضرب في عيد الفصح في ابروتزي واماكن اخرى كثيرة من العالم الكاثوليكي . (١)

إننا عندما نتأمل كم مرة افلحت الكنيسة في زرع بذور الدين الجديد في تربة الوثنية القديمة ، ندرك ان احتفالات الفصح بموت المسيح وبعثه إنما طعمت على احتفالات مثلها بموت ادونيس وبعثه كانت تقام (حسب ما رأينا من ادلة) في سوريا في الموسم نفسه. والصورة التي ابتدعها الفنانون الاغريق للآلهة الحزينة وقد احتضنت حبيبها الميت بين ذراعيها تماثل ، بل لعلها الاصل ، في « البيتا » Pietà الشائعة في الفن المسيحي – وهي صورة او تمثال للعذراء مريم وابنها الاله ميت في حضنها . واشهر من مثلها ميخائيل انجلو بتمثاله الرخامي المشهور في كنيسة مار بطرس بروما . فذلك التمثال الرائع ، بما فيه من حزن في الأم يكاد ينطق ، إزاء ما في الابن من ارتخاءة الموت ، من أنبل ما حفر مثال في رخام. والفن الاغريقي القديم قد خلف لنا تماثيل قليلة فيها مثل هذا الجمال ، ولكن ليس في احدها مثل ما فيه من شعور عميق .

ويحسن بنا بهذا الصدد ان نورد قولاً للقديس جيروم : فهو يذكر أن بلدة بيت لحم ، وهي المكان الذي ولد فيه السيد المسيح

---

(١) كانت مأساة موت المسيح وبعثه تمثل فيما مضى في انكلترا ايضاً في عيد الفصح .

حسب ما جاء في الكتب النصرانية ، كانت تظللها غابة مكرسة لاله سوري اقدم من المسيح ، وهو ادونيس ، وان المكان الذي بكى فيه الطفل يسوع كان الناس فيه يندبون عشيق فينوس . ويظهر ان جيروم ، وان لم ينص على ذلك صراحة ، يظن أن الوثنيين زرعوا غابة ادونيس بعد ولادة المسيح بقصد تنجيس تلك البقعة المقدسة : والارجح انه كان مخطئاً في ظنه . فاذا كان ادونيس (كما برهنت آنفاً) روح الحبوب ، فليس في الامكان ايجاد اسم لمحل اقامته خير من « بيت لحم » ، اي « بيت الخبز » ، ولعله كان يعبد هناك في بيت خبزه لقرون طويلة قبل ميلاد ذلك الذي قال : (أنا خبز الحياة. وحتى لو سلمنا جدلاً بان ادونيس تلا المسيح ، ولم يسبقه ، في بيت لحم ، فاننا نجد أن هذا الاله الحزين قد أجيد اختياره لصرف المسيحيين عن إيمانهم ، لشدة الشبه بين الطقوس التي تقام إحياء لذكرى موت الالهين وبعثهما . ومن اقدم مواطن عبادة الاله الجديد (السيد المسيح) مدينة انطاكيا ، وقد رأينا ان الناس في انطاكيا كانوا يحتفلون بموت الاله القديم كل عام براسيم مهيبة . وقد وقع هناك حادث عند دخول يوليان (الامبراطور الروماني) المدينة لعله يلقي نوراً على موعد هذا الاحتفال من السنة . فعندما دنا الامبراطور من المدينة ، قابله الشعب بالترحاب والصلاة كأنه إله ، ولشد ما دهش عندما سمع الجماهير المحتشدة تهتف قائلة ان كوكب الخلاص قد طلع عليهم من الشرق . لا شك ان عبارة كهذه قد لا تكون سوى مجاملة يُسرف بها جمهور شرقي يتذلل امام الامبراطور الروماني . على

أنه من المحتمل ايضاً ان بزوغ نجم ساطع بانتظام كان اشارة لهم بالشروع في العيد ، وان الحظ شاء لهم ان يظهر النجم فوق حافة الأفق الشرقي ساعة دنو الامبراطور . فاذا حدث ذلك فعلاً ، فلا ريب ان اتفاقاً كهذا يفعل فعله في خيـال جمهور ثائر الاعصاب مؤمن بالخرافـات ، ولعله حينئذ ينادي بان الامبراطور هو الاله الذي اشارت الى مقدمه العلامـة في السماء . او لعل الامبراطور اخطأ فهم ما كانت الجماهير تصيح به ، فظن ان مخاطبتهم لكوكب السماء تحية له هو .

وكان الناس يرون عشتاروت ، خليلة تموز الالهية ، في كوكب الزَهرة (فينوس) ، وكان الفلكيون البابليون يتتبعون بدقـة تحولهـا من نجمة صبح ، الى نجمة مساء ، فيستخلصون الآيات من بزوغها وأفولها المتعاقبين . ولذلك في وسعنا ان نستنتج ان عيـد ادونيس كان يجيء عندما تظهر الزهرة كنجمة صبح ، أو نجمة مساء. إلا ان الكوكب الذي حياه اهالي انطاكيا يوم العيد كان قد ظهر في الشرق ، فاذا كان هو الزهرة حقـاً ، فلا بد انه كان نجمة الصبح .

وفي بلدة أفقه في سوريا ، حيث كان هيكل مشهور لعشتاروت ، كانت الاشارة بالعيد – كما يبدو – وميض نيزك يسقط في يوم معين من قمـة جبل لبنان في نهر ادونيس (نهر ابراهيم اليوم) . وكان المظنون ان النيزك إنما هو عشتـاروت نفسها ، ومن الطبيعي ان يؤول سقوطه في الاجواء السماوية بانـه هبوط الالهة الولهى الى ذراعي حبيبها . وفي انطاكيا كما في غيرهـا ،

كان ظهور نجمة الصبح يوم العيــد يعدّ بشرى بمجيء ربة الحب لكي توقظ حزيزها المقتول من مثواه الترابي . فاذا كان الامر كذلك، فلنا ان نخمن ان نجمــة الصبح هي التي اقتادت حكماء المشرق (١) الى بيت لحم ، تلك البقعة الطاهرة التي سمعت ، كما قال جيروم ، بكاء الطفل المسيح ، والندب على ادونيس.

(١) ملوك المجوس الذين جاءوا الى بيت لحم ليشاهدوا يسوع بعد ولادته ويقدموا له الهدايا. وقد هداهم الى المكان نجم لم يأفل حتى بلغوا المدينة . (المترجم)

فهرست

للمترجم أيضاً

ما قبل الفلسفة ــ مغامرة الانسان الفكرية الأولى :
دراسة في أساطير وادي النيل ووادي الرافدين
تأليف : هنري فرانكفورت ، جون ولسون ، وثوركيلد باكوبسن

أدونيس أو تموز

● لكتاب « الغصن الذهبي » شهرة في عالم الفكر لم تدركها الا كتب قلائل ، و « أدونيس » أحد أجزائه الكثيرة ، ولعله أهمها إطلاقاً ، وهو بعرضه الممتع للمعتقدات والعادات التي كان الناس قديماً يمارسونها في مراسيم الخصب وطقوس العبادة يُفسّر الكثير من المعتقدات والعادات الشائعة بين الناس حتى اليوم ..

● كان لهذا الكتاب ، فضلاً عن خطورته الأنثروبولوجية الظاهرة ، أثر عميق في الابداع الأدبي في أوربا طوال القرن العشرين ، بما هيأه للشعراء والكتاب من ثروة رمزية وأسطورية . وكان له أثر مماثل في الأدب العربي المعاصر .

رسم الغلاف : حلمي التوني

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ٥٤٦٠/١١ بيروت

السعر ٦ ل . ل .
أو ما يعادلها